14 me Année No. 698

Lundi — 18 — 11 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٩٨ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٤ ذو الحجة سنة ١٣٦٥ — ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

نافقاء اليــــربوع

للأستاذ محمود محمد شاكر

لى صديق ، أطال الله بقاءه ، يعيش فى الدنيا وهو خارج منها . هذا غاية نَعْته وصِفته : « يعيش فى الدنيا » وهو حريص عليها ، لا حرصَ البخيل الذى يجمع المال ، ولا حرصَ المستمتع المستهتر باللذات ، ولا حِرْصَ الطامح الطامع فى الخلود — كلا بل هو حرصٌ على حِدَته وعلى حِياله لا يُشبهه فى الناس إلا قليل . هو حِرْصٌ على التعجُّب منها ومما فيها ، وهو حرصٌ على النظر فى الأشياء والحيرة فى فهمها — واضحة كانت أو مبهمة ، وهو حِرْصٌ على استيعاب الحياة كما هى عند الناس من نُظرائه ومن غير نظرائه . ولا يخرجُ من كل هذا الحِرْص الشديد على الدنيا التى تحت عينيه إلا بطول التساؤل وبتنازُع الحيرة ، وبالخوف مما كان ومما لم يكن . هذه واحدةٌ .

وعجيبٌ أنه أبداً مولَعٌ بهذا الحرص ولَوعَ المحبّ بحبّ جديد . وهو نفسه يعلم أنه حرص عقيم لا يجدى عليه شيئاً فى معرفة الدنيا ولا فى التثبّت من شىء من أحوالها ، ولكنه يزدادُ به على الأيام وَلُوعاً وكلفاً وغراماً حتى يستهلك نفسه فى السؤالِ والبحث والتقصّى عن أشياء لا تغنى عنه شيئاً ، ولا يغنى عقله فى إدراكها ، ولا يغنى قلبه فى الإيمان بشىء منها . وهو يأبى أن يُلقى عن كاهله هذا العبء الثقيل الفادح ، وإن كان يثق كل الثقة بأنه شىء لا جدوَى من حَمْله ، ولا من الصّبر على بلواه . هذه ثانيةٌ .

وثالثــة الأثافىّ ، كما قال أسلافنا ، أنه إنسان حىُّ النفس قابلٌ للتلقّى ، فكل شىء من حوله يثير فى نفسه الفضول ، وينشُر عليه ذلك الحرصَ الشديد على المعرفة — مجديةً كانت أو غير مجديةٍ ، لا يبالى . فإذا هو كالمغموم إذا اعترضه ما يعوقه عن الاستقصاء . وأشدُّ من ذلك هولاً أنه لا يكادُ ينسى شيئاً مما ائتمنَتْه نفسه على استقصائه ، إذا قطعه ذلك العارض البغيض إلى نفسه ، فإذا عادَ إلى ما لا بدَّ له منه عاد أشدَّ رغبة فى النفاذِ والاستقصاء والبحث . فهو بذلك مُمَانٌ على الحرص على الدنيا وما فيها بالتى انطوت عليه جوانحه ، وبالذى فطرت عليه نفسه ، فهو لا يرى خلاصاً ، أو لا أرى أنا له خلاصاً ، من هذه المادة المتمكنة ، أو هذه الخصلة الكامنة فى أعمق أعماق طبيعته .

فهو بهذا الذى وصفت : « يعيش فى الدنيا » ، ولكنه « خارج منها » بشىء آخر ، وإن كان متصلا بهذا كله أشد الاتصال . فهو لا يكاد يُعبأ بنفسه شيئاً ، بل هو لا يعرف أن له نفساً موجودة ، أو أصحُّ من ذلك أنه يشك كل الشك فى وجود نفسه ، فهو أبداً مختلَسٌ من نفسه بالبحث عن نفوس الناس . وهذه مَسْلبة الفضول ، فإنها تمنعُ المرء عن التأمل فى

نفسه ، فإذا أراد أن يتأملها فكأنما يتأمل شيئاً غريباً ليست بينه وبينها وشيجة أو آصرة أو عاطفة . ومن أجل ذلك تراه يدور من حياته هو فى مثل الحلقة المفرغة لا يدرى من أين بدأ ولا أين انتهى ، ولا يعرف أهذا هو الحق فى فهم نفسه أم الحق سواه . ويذهب ويعود فى البحث ولكنه لا ينتهى إلا إلى شيء واحد هو أنه لا يدرى .

كنتُ على وشك أن أكتب شيئاً حين أسرع هذا الصديق إلى التلفون ليسألنى هل قرأتُ جريدة « المصرى » ، وما جاء فيها من الذى سمته « النص الحرفى لمشروع اتفاقية صدقى — بيفن ، ولبروتوكول الجلاء والسودان » : وذلك فى عدد الأحد ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، وكنت قد فرغت لساعتى من قراءته ومن التعجب لما جاء فيه . وأنا لا أستطيع أن أطمئن إلى نص مختلس لا أدرى أحقٌ هو أم باطل ، ولكنى قرأته فإذا لم يكن هو النص فكأنه هو ، لأنه أشبه مُمَوَّجٍ بحقيقة الموج . ولا أظن أن الانجليز يبلغ بهم صدق الطبيعة أن يقولوا فى السياسة شيئاً على وجهه وعلى استقامته ، فلذلك خُيِّل إلىَّ أن فى هذا النص طرفاً من الحقيقة الدالة على طبيعة الاعوجاج فى ألسنة هؤلاء الساسة الإنجليز ، ولست أعجل إلى مثل هذا النص المختلس فأقول فى عبارته قولا ، فإن العجلة فى مثل هذا شيء لا غناء فيه ، كما لا غناء لك فى إقناع الإنجليز بأن الحق الذى لك هو حقك ، إذا كان الإنجليزى يرى أنه ليس حقاً لك ، وإن ظاهرتك الدنيا كلها على حقك .

ونحن منذ كانت سنة ١٩١٩ أخذنا نجهل كيف يعامَل هؤلاء الناس ، فإن ذلك الخطل الذى ضُرب على آذاننا وأبصارنا وقلوبنا ، والذى يسمونه « المفاوضة » قد جرّفنا فى عُباب مُتلاطم من الحيرة والضلال ، فما نكاد نبصر ولا نعى ولا نعقل شيئاً من حقيقة هذا الشعب الإنجليزى أو ساسته الذين يتصرفون فى أمور الدنيا كأنهم وارثوها وأصحابها الذين تلقَّوا مقاليدها من يد الله القدير العزيز . وكنت أظنُّ أن التجارب قد حنكت رجالنا فعرفوا مواعيد هؤلاء القوم ، وادركوا كيف تكون مواثيقهم منذ علا أمرهم فى الأرض ، وكيف كان تاريخ معاهداتهم منذ كان لهم شأن فى هذه الدنيا يكتبون من أجله المعاهدات . بيد أن ذلك لم يكن ، لأن رجالنا يستضعفون أنفسهم ، ويظنون أن هذا الشعب لا يمكن أن يظفر بحقه إلا بمداورة الإنجليز والترفق فى معاملتهم ، حتى ينالوا من أيديهم ما تيسَّر ! وهذا عجبٌ ! بل هو غفلةٌ ، بل هو كدْحٌ أحمقُ فى سبيل لا شىء . فقل لى بربك كيف يستطيع إنجليزىٌّ أن ينزل لنا عن شىء هو يريدُ أن يؤمن بأنه حقٌّ له ، وإن كان حقاً موروثاً متحدّراً مع أصل البشرية كلها ، وهو الاستقلال والحرية ! ...

خلق الله فى دوابّ الأرض دابة يسميها العرب اليَرْبوع ، تكثر فى بلادهم ، وهى نوعٌ من الفأر قصيرُ اليدين جداً ، وله ذنب كذنب الجُرَذ يرفعه صُعُداً ، وفى طرفه شبْه النَّوَّارة . ولهذا اليربوع أسلوب فردٌ فى حياطة نفسه وأموره ، حتى إنه يتخذ لعشيرته رئيساً يقف حارساً على جحرة اليرابيع يحميها ، فإذا قصَّر فى الحراسة ، وهجم على اليرابيع من جراء غفلته وإهماله هاجمٌ أفزعها أو أضرَّ بها ، انقلبت على ذلك الرئيس فقتلته وأقامت غيره مقامه . ويتخذ كل يربوع منها جحرَةً يلوذ بها ، ويجعلها سبعة لها سبعة أبواب . فيبدأ أول ما يبدأ بالجحر الذى يسمونه « الرَّاهطاء » فيغطيه بالتراب حتى لا يبقى منه إلا على قدْر ما يدخل الضوء منه إلى جحره هذا ، ثم يحتفر جحراً يسمونه « الحائِياء » يحثو عنده التراب برجليه ليخفى مدخله . ثم يحتفر آخر يسمُّونه « الدَّامَّاء » لأنه يُدَمِّمه بتراب نَبيثته حتى لا ينْفذَ منه عدوٌّ ، ثم ينشىء جحراً آخر يقالُ له « العانقاء » يملؤه تراباً ، فإذا فجأه مايخاف اندسَّ فيه إلى عنقه . ثم يحْفر « القاصعاء » وهو جحرٌ يسدُّه سدًّا محكما لئلا يدخل عليه منه حيَّة أو دابة . ثم يحفر « النافقاء » ويجعل على فمه غشاء رقيقاً ، فإذا أُخِذ عليه بقاصعائه عدا إلى هذه النافقاء فضربها برأسه ونفق منها ومرق خارجاً . ثم يجعل سابع سبعة جحراً يقال له « اللُّغز » يجعله بين القاصعاء والنافقاء ، يحفره مستقيما إلى أسفل ، ثم يعدلُ به عن يمينه وشماله عُرُوضاً تعترض ، يُغَمِّيه ليخفى مكانه بذلك الإلغاز ، فإذا طلَبه طالب بعضاً أو سواها نَفَق من الجانب الآخر .

أفرأيت إلى كل هذه الحيطة وكل هذا التدبير ! فلن تعجب

فإنك واجدٌ فى الخُلُق الإنجليزى أكثر من هذا مداورةً وتفلُّتاً وإلغازاً ومراوغة . والإنجليز أنفسهم يعلمون أنهم كذلك وأنهم يخفون فى سرائرهم ما لو اطّلعْتَ عليه لاستصغرت من احتيال هذه الدابة ما استكبرت . ومن أراد أن يدخل على الإنجليز جحرتهم وقع فى متاهة لا يدرى معها من أين ولا إلى أين . فمن العجيب الذى لا ينقضى عجبه أن يظن رجالٌ من رجالنا أن فى طوقهم أن يراوغوا الإنجليز فيستولوا على جحرتهم المحتفرة فى طبائعهم وأخلاقهم وعقولهم .

إن معنى المفاوضة والمعاهدة بيننا وبينهم هى أن يسعى الانجليز جُهدهم حتى تطمئن إليهم ، فإذا فعلت أخذوا بيدك وقادوك إلى مثل جحرة اليربوع ، فيدخلون بك من واحد إلى ثان إلى ثالث ، حتى إذا خُيِّل إليك أنك قد تمكنت منهم «نفقوا» من نافقائهم بأسهل مما كنت تتصور . وهكذا شهدنا وعرفنا وخبرنا منذ احتلوا بلادنا فى سنة ١٨٨٢ ، فوعدوا الدنيا كلها — لا نحن وحسب — بالجلاء الناجز ، ولكنه ظلَّ وعداً إلى هذا اليوم . وجاءونا اليوم يعدوننا أيضاً أن يجلوا عنا بعد عام أو عامين أو ثلاثة — أىُّ ذلك كان . فمن الذى يصدق هذه اليرابيع ؟ ومن شفيعهم وضمينهم فى كل هذا ؟ أهو الخطّ المكتوب ، أم اللفظ المنطوق ، أم سوابق العهود المؤكدة والمواثيق الغليظة !!

إنها لغفلةٌ أن يرى امرؤ نفسه أقدرَ على خديعة هذه اليرابيع من قدرتها هى على خديعته . وليس يعلم شيئاً من ظن أن الإنجليز ينفضون أيديهم من شىء هو كائن فى أيديهم . فالإنجليز يرابيعُ بالطبع والممارسة ، حتى إن « النِّفاق » الذى علمته فى أخلاق اليرابيع ، قد صار أيضاً خُلُقاً من أخلاقهم يشهدون هُمْ به على أنفسهم ، ويشهدُ عليهم به تاريخهم منذ كان لهم تاريخ . وهذا النفاق المطبوع هو الذى جعلهم أقدر شعوب الأرض فى كل شئون السياسة . وما مواعيدهم ، ولا معسول ألفاظهم ، ولا روعة دعوتهم إلى الحرية ، ولا كمال إخلاصهم فى تحرير الجنس البشرى من غوائل النازية ، ولا صبرهم على المكاره فى سبيل المثل الأعلى للانسانية — كل ذلك ليس ببعيد عنا فى زمن الحرب الماضية . لقد نطقوا بكل شىء ، ولكنهم لم يحققوا شيئاً مما نطقوا ، فكيف نرضى لأنفسنا أن نؤمن بأنهم فاعلون معنا شيئاً لم يردّهم خجل ولا حياء عن نكث مثله وإخلافه ، بل أكبر من ذلك أنهم فعلوا نقيضه ودافعوا عن فعله بمثل القوة والبلاغة التى كانوا يزيّنون بها لأمم الأرض أن نعيمهم فى أيام محنتهم وبلواهم !

ومن عجائب الإنجليز أنهم يعلمون علماً ليس بالظن أنهم معتدون متغطرسون ظالمون ، يأكلون الحقوق أكلا لا يرعون فيه حرمة ولا ذمة . ومع ذلك فهم من طول ممارستهم للنفاق قد انتهوا إلى أن أقنعوا أنفسهم بأن هذا الاعتداء وهذه الغطرسة وهذا الظلم ليس له وجود حقيقىّ ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أنهم وحدهم دون سائر العالمين أهل العدل والنَّصَفة والتواضع ، وأنهم هم الذين جاءوا إلى الدنيا ليردوا الحقوق إلى أهلها ، وأنهم هم القوَّام على هذه الرسالة السامية . ولذلك ترى كلام رجالاتهم كلاماً نيِّراً مضيئاً فاتناً ساحراً إذا عرضوا لمعنى الحرية وما أطاف بها ، ويُخيل إليك أن إيمانهم بهذه المثل العليا إيمان لا يعتوره نقصٌ . وهذا حق ، ولكنهم إذا جاءوا إلى تنفيذ مايقولون رأيتهم أهل بغى وعُدوان فيما ترى ويرى الناس ، ولكنهم هم يصرُّون على أن هذا هو الحق الذى لا محيصَ لك ولا للناس عن الأخذ به ، تقول : وإن كان بغياً وعدواناً ، فأقول : وإن كان بغياً وعدواناً !

والإنجليزى يرى أن هذه الأمانة التى حُمِّلها هى الأمانة ، وأنه مؤدِّيها على وجهها ، فإن أنت خالفته وزعمتَ له أنه يجورُ عليك جوراً عبقرياً قال لك : إنك شديد المماكسة مولَعٌ بالجدال ، ويحاول أن يبسُط لك الأمر بسطاً حتى تقتنع بأنه غير ظالم ، بل هو العادل الذى لا يعرف العدل أحدٌ سواه . ومن شاء أن يناقض هذا الذى أقوله فلينظر إلى حُجَّة هذا الشعب فى موقفهم أو احتلالهم للهند ، وفى احتلالهم لمصر من أجل الهند . فالهند مستعبدة ظلماً وجوراً ، وهم يريدون أن يحللوا بقاءهم فى مصر ، لأن فيها قناة السويس ، وهى التى تؤدى أو تسهل الطريق إلى بلاد الهند . فإذا خرجت القناة من أيديهم كان ذلك وبالا مستطيراً على مصالحهم فى الهند ! فينبغى عندهم أن ترضى مصر بالأمر الواقع ، وهو بقاؤهم حراساً على القناة ، لئلا تضيع مصالحهم فى البلاد التى استعبدوها واستذلوها وأفقروا أهلها وأكلوا أموالها

من التاريخ الإسلامي :

وديعة الله (*)

للأستاذ علي الطنطاوي

[إلى أصدقائي وتلاميذي في بغداد ، ولا سيما الأحبة على طريق الأعظمية ليذكروني بهذه المدينة كما أذكرهم دائما]

« علي »

كان فتى من أبناء التجار ، بارع الفتوة ، واسع الغنى ، قد جمعت له اللذائذ ، وسيقت إليه المنى ، وكأنه البحر تنصبّ فيه جداول الذهب ، وداره الجنة تجري من تحتها الأنهار ، وفيها الحور العين ، خمسون من الجواري الفاتنات اللاتي حملن إلى بغداد من أقطار الأرض وحشدن فيها ، كما تحمل إلى مخدع العروس كل وردة فاتنة في الروض ، وزهرة جميلة في الجبل ...

ولكنه لم يشعر بنعيم الحياة ، ومتعة العيش ، حتى اشترى هذه الجارية بخمسمائة دينار ، وكان قد رآها في سوق الرقيق فرأى جمالا أحلى من أحلام الحب ، وأجمل من بلوغ الأماني ، وأطهر من زنبقة الجبل ، فهام بها هياماً وزاد فيها حتى بلغ بها هذا الثمن ، وانصرف بها إلى داره ،-وهو يحسب أنْ قد حيزت له الدنيا ، وأمتع بالخلود ، واشتغل بها وانقطع إليها ، ولم يعد يخرج إلى الدكان إلا ساعة كل يوم ثم لا يستطيع أن يصبر عنها ؛ ويزلزله الشوق إليها ، وتدركه هواجس الحب فيغار عليها ، لا من الناس فما يصل الناس إليها ، بل من الشمس أن تلمحها عين الشمس ، ومن النسيم أن تلمسها يد النسيم ؛ ويشعر بهذه الغيرة المحرقة في قلبه ، فيُهرع إليها ليطفئها بلماها ...

لقد صار هذا الحب مصدر لذته ، وسر حياته ، ما كان يدري من قبله ما اللذة وما الحياة ، وما كان يحسّ أنه يعيش حقاً وأن له قلباً ، وما كان يدرك من قبله بهاء النهار ، ولا فتنة الليل ، ولا سحر القمر ، كان ذلك عنده كالألفاظ بلا معنى ، يفهم منه ما يفهمه الأعجمي إذا تلوت عليه غزل العرب ؛ فلما عرف الحب أدرك أن وراء هذه الألفاظ معاني تهز الفؤاد ، وتستهوي القلب . وكان يمشي في طريق الحياة كما يمشي الرجل في المتحف المظلم فطلع عليه هذا الحب نوراً مشرقاً أراه هذه التحف الفاتنات وهذه الروائع ...

***

وتتالت الأيام ، وزاد إقبالا عليها وإعراضاً عن الدكان . وكان يبصر دنياه تدبر عنه ، وتجارته تذوب في ضرم هذا الغرام كما يذوب الثلج ، وتتبدد كما يتبدد الندى في وهج الشمس ، ولكنه لا يكره هذا الحب ولا ينفر منه ولا يزداد إلا تعلقاً به وتمسكا بأهدابه . وكان كل ما في الحياة من متع ، لا يعدل عنده لحظة واحدة من لحظات الوصال ، وذهب الأرض كله لا يساوي هناءة من هناءات الحب ، فكان يترك البائعين والمشترين ويسعى إليها ليشتري منها اللذاذات والقبل .

وكانت كلما نصحته وأرادته على العود إلى تجارته قال لها : مالي والمال ؟ أنت مالي وتجارتي ومكسبي ، فلا تستطيع أن تفتح فمها بجواب لأن شفتيه تقيدان فمها فلا ينفتح !

***

(*) كتبت لتذاع من محطة الشرق الأدنى في يافا وأصل القصة في الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي في أوائل الجزء الثاني فليرها القراء .

وأعروا ذَرَاريها ، وهتكوا الستور عن أحرار نسائها . يا له من منطق ! وهل في طاقة أحد أن لا يقتنع برأيهم في حفظ كيان هذه الامبراطورية الضخمة ! كلا بل ينبغي أن يُطيع العالم وأن يَسمع . فلو أن الإنجليز فرّطوا لهوى العَلم البريطاني إلى الرغام في أرض الهند ، ولبقيت الهند عارية لا تجدُ هذا الدفء الحلو اللذيذ ، ولا هذا الظل الوارف الناعم الذي ينشره عليها علم بريطانيا !

فحدثني أيها الصديق ماذا تريد بعد ذلك أن أقول لك في هذه المعاهدة التي تريد إنجلترا أن توقعها مصر راغمة أو راضية ! دَعْ عنك الحيرة ، ودع عنك تقلب الرأي ، واختر لي أنت رأياً أصير إليه . وإلا فإني أقول لك كما قلت دائماً : إن المعاهدة بيننا وبين بريطانيا ، هي أن ندخل معها في جُحر اليرْبُوع حتى إذا استقرّ بنا المقام قليلا « نفقت » كما يمرق اليربوع من نافقائه إذا سُدّت عليه المسالك !

محمود محمد شاكر

وأصبح الرجل ذات يوم فاذا التجارة قد بارت ، وباد المال ، وذهب الأثاث ، وبيعت الجوارى ، ولم يبق فى يده شىء يباع ؛ فأقبل ينقض الدار ويبيع أنقاضها ، ولم يأس على ذاهب ، ولم يحس بفقد مفقود ، فقد كان يلقى الحبيبة ، ويجد فى حبها غذاءه إذا جاع ، وريّه إذا عطش ، ودفئه إذا برد ، وفى وجنتيها ما يغنيه عن الأوراد ، وفى ثناياها بديلا من اللآلئ ، وفى ريقها عسله المصفّى ، وخمره المعتق ، ومن ريحها عطره الفواح ، وفى صدرها دنياه وآخرته ، ويرى الدار الخالية معها قصراً عامراً ، والصحراء روضة مزهرة ، والليل المظلم معها نهاراً مضيئاً ...

وأثمر الحب وجاء الحصاد ، ولكنه قد خالف موعده ، فلم يجىء فى الربيع الطلق ، ولا فى الصحو الجميل ، بل قدم فى الشتاء الكالح ، والأيام القاتمة الدكناء أيام الفقر والعوز ؛ وأخذها المخاض فجعلت تتلوى من الألم على أرض الحجرة ، وما تحتها إلا حصير تقطعت منه الخيوط ، وفراش بلى وجهه وتناثر قطنه حتى اختلط بالتراب ... وطال عليها الوجع وهو واقف أمامها يحس أن ألمها فى ضلوعه ، وأن كل صرخة منها سكين(١) تحز فى قلبه ، ولكنه لا يملك لها شيئاً ، وقالت له بعد أن عجزت عن الاحتمال :

— إنى أموت ... فاذهب فاحتل بشىء تشترى به عسلا ودقيقاً وشيرجاً(٢) ... اذهب وعجل ، فانك إذا أبطأت لم تجدنى .

***

وخرج ... وصار يعدو كالمجنون ... أين يذهب والليل قد مالت نجومه ، والناس نيام فى دورهم ، ولا يجد من يلجأ إليه ، فقد فصله الحب عن الدنيا وصيّره غريباً فيها ، ليست منه ولا هو منها ، وكذلك يصنع الحب ! وجعل يهيم على وجهه حتى بلغ الجسر ، جسر بغداد ، وكان الليل خاشعاً ساكناً ، والناس قد أمّوا بيوتهم ، وأنسوا بأهليهم ، وهو الوحيد الشارد لا أهل له إلا التى خلّفها تعانى سكرات الموت ، وعجز عن إسعادها ؛ ولا دار له إلا هذه الخربة التى فرّ منها . لقد كانت هذه المرأة حظّه من دنياه ، وها هى ذى تموت فلا يبقى له فى دنياه حظ ، وكانت هى نورها فلن يبقى له بعدها من نور . وتصور الوحشة المخوفة ، والوحدة المرعبة التى سيقدم عليها إن ولّت عنه هذه المرأة التى كان يعيش بها ولها ، ونظر إلى ماء دجلة يجرى أسود ملتفاً ببرد الليل ، فأحب أن تواريه أحشاؤه ، وتراءى له الموت حلواً فيه متعة اللقاء ، وأنسة الاجتماع ...

وعاد فذكر آلام الحبيبة وانتظارها ، وعجزه عن معونتها وإسعادها ، فتوجه إلى الله ودعاه من قلبه صادقاً مخلصاً وقال : « يارب ، إنى استودعتك هذه المرأة وما فى بطنها ... » ، وهمّ بالقاء نفسه فى الماء ، وفكر فى الموت فوارت صورته أحلام الحب وصوره ، ولم يعد يرى إلا هذه الهوة التى سيتردّى فيها ، وتسلق درابزين الجسر فأدركته حلاوة الروح فراح يتصور برودة الماء ويفكر فى الموت هل يأتيه سهلا هيناً ، أم هو سيذيقه العذاب ألواناً ، وحاول أن يتذكر ما سمع عن الغرقى وهل يختنقون عاجلا أم يبطىء عليهم الموت ، وذكره هذا العذاب بعذاب الله يوم القيامة ، أليس الله قد حرّم الانتحار ؟ أليست هذه النفس ملكاً لله وحده أودعها جسده أمانة ليستردها متى شاء ليست له هو ولا يملكها ، وليس هو الذى خلقها وأبدعها ، وذكر أنه توجه لله واستودعه حبيبته فكيف يلقى الله آثماً ويسأله عونها وحفظها . وتنبه إيمانه فتردد ، ووقف ... ثم عاوده التفكير فى حياته بعد اليوم ، وكيف تكون إن ذهبت منها متعة الحب ، فرجع إليه يأسه وقنوطه وعزم عزماً مبرماً على الموت ، وأغمض عينيه وخفق قلبه من هول ما يقدم عليه ، وكاد يقفز ولكن ... ولكن يداً لم يطق لها دفعاً ، ولم يملك معها حراكا أمسكت به ... ذلك هو صوت أخذ أذنيه من بعيد ، ثم امتد حتى بلغ الأفق الذى أطلّ منه الفجر والأفق الذى انغمس فيه الليل ، ثم غمر النهر والشاطئين والمدينة ... فأحسّ به يشرق على نفسه كهذا الفجر فيبدد ليلها ، ذلك هو صوت المؤذن ، ينادى فى صفاء الليل وإصغاء الدنيا ، أجلّ وأجمل نداء اهتز به هذا الفضاء ومشى فيه : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

وسمع : « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » فرأى فيها مجد الآخرة بالعبادة ، ومجد الدنيا بالنجاح ، وصبت القوة والعزم فى أعصابه فعدل عن الموت ، وأقبل يسعى فيما جاء له ، ولكنه لم يجرؤ (على هذا كله) أن يعود إلى الدار ، وحدثه قلبه أن

(١) السكين مذكر وحكى فيه التأنيث

(٢) دهن السمسم معرب شيره وعامة الشام ومصر تسميه اليوم السيرج .

الفتاة قد ماتت ، فمضى على وجهه تقذفه قرية فتتلقاه قرية ، يضيفه الناس ، وقد كان فى الناس سلائق العرب وآداب الإسلام : يضيفون الغريب لا يسألونه من هو ولا يبتغون منه أجراً ولا شكراً ، وجعل يطوى الأرض والأرض تطوى صحائف عمره ، حتى حطَّت به النوى فى خراسان .

ولقى من عرفه فيها ومدَّ إليه يده مُسْعِداً ومعيناً فعاد إلى تجارته ... وجعل يفكر لما استقر به المنزل فى داره وامرأته والشك يَحُزُّ فى قلبه ، ويكتب الكتب يسأل عنه وعنها ويستنجد ، ويلح ويتوسل حتى كتب ستة وستين كتاباً[١] ، ولم يرجع إليه جواب فأيقن أنها قد ماتت ...

وأثرى وامتلأت يده بالذهب ولكن قلبه ظلَّ خالياً من الحب . وما كان يوسع فيه الأسى مكاناً لحب جديد ، فكان كلما احتواه العشيةَ منزله ، وأغلق عليه بابه جفا عالم الناس وراحت روحه تسبح فى عالمه هو ، عالم ذكرياته وماضيه الذى أحبه وافتقده ولم يجد منه بديلا ، فيشعر بحرارة تلك القبل ويسمع وسوستها ويلمس دفء ذلك العناق ، ويسترَوح نسيم تلك الدار التى كانت جنة وارفة الظلال ، فيها الروح والريحان وفيها من كل فاكهة زوجان ، فصيَّرها الحب قاعاً صفصفاً ... ولكن تلك الخربة أحب إليه من هذا القصر الذى يعيش فيه اليوم وحيداً لا يؤنسه فيه إلا الذهب ...

وتصرَّمت السنون ، وتتابعت خاليةً فارغة حتى أقامت بينه وبين ليلة المخاض حاجزاً من الأيام سمكه ثمان وعشرون سنة ، وهبَّت على عمره رياح الخريف ، فذوى غصنه ، وكاد يدركه الجفاف ، فأفزعه أن يموت بعيداً عن بغداد وعن داره التى ثوت فيها الحبيبة ؛ فباع كل ما يملك بعشرين ألف دينار من الذهب واشترى قماشاً وبضاعة حملها إلى بغداد ، وسار فى قافلة له ضخمة يؤم دار الوطن ... ولم يكن له من أمل إلا أن يقيم بهذا المال قبراً ضخماً للحبيبة ويجعل فيه له مكاناً ، ولكن الدهر لم يُبلغه حتى هذا الأملَ ، فقد خرج على القافلة اللصوص . فنهبوها ، وقتلوا من فيها ، ولم يتركوا منهم أحداً ...

***

ونهض من بين الموتى ، وسار على رجليه وقد تبلَّد ذهنه من عظم الفاجعة حتى ما يقدر على الحزن . ومشى حتى حاذى النهر ، وجعل يمر على مغارس النخيل ، ومشارع المياه ، ومنابت الورد والفل ، وهو سادر ساهم ، كأنما يمشى فى حلم ، قد ماتت فى نفسه كل رغبة إلا الرغبة فى الموت ... وماذا بقى له فى الحياة بعد ما فقد الحب وفقد المال ؟ ولكنه لم يشأ أن يموت إلا فى داره ولم يرد أن يضم عظامه إلا الثرى الذى ضمَّ أعظم الحبيبة ، حتى يجاورها فى الموت كما جاورها فى الحياة ، وتحامل على نفسه وقام يجرّ رجليه جراً ، وكلما دنا من بغداد وأحسَّ ريحها انتعش واشتد ، وعاش بذكريات الحب الذى ذهب ولم يبق إلى عودته سبيل ، وآنسه أن يرى مرة ثانية الديار التى شهدت صور هذا الحب ، ولكنه أعيا أخيراً وسقط على الشاطئ ولم يعد يستطيع الحراك ...

وجعل يفكر تفكيراً مبهماً ملتاثاً بقطعه الجوع الذى يفرى أمعاءه ، والتعب الذى يهدّ عظامه ، فيرى أنه كان فى حلم وصحا منه ... الدنيا كلها حلم كاذب : الحب ، والمال ، والصحة ، والسعادة ، والمجد ... لا يخلد شىء من ذلك ولا يبقى ... لا يبقى منه إلا ذكرى تبعث الألم ، وتثير حسرة ، وتحرق القلب ، وتمنى أن لو كان خلق فقيراً منفرداً ، ما عرف لذة الألفة ، ولا متعة الغنى ، وعاودته فكرة الموت التى كانت مرت بذهنه منذ ثمان وعشرين سنة ، ولكن دينه منعه أن يختم حياته بهذه الخاتمة البغيضة وأن يجمع على نفسه شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، وهبت عليه نفحة من نفحات الإيمان فاستراح إليها ، وذكر أنه استودع فتاته الله ، ولا تضيع عند الله الودائع ، وأن وراء هذه الأحداث حكمة بالغة ، وقدراً حكيما . فاطمأن إلى حكمة الله وسلم أمره إليه ووجد لهذا الاطمئنان راحة وشبعاً ...

وسمع صوت بوق يرعد على حاشية الأفق فنظر فإذا (زلال[١]) ضخم قد أقبل عليه ، فلما حاذاه أشار ونادى ، وسأل صاحبه أن يحمله إلى بغداد ، وكان فيه أمير كبير ، ولكن (الديمقراطية) كانت شعار العرب ، وكانت سليقة فيهم ، لا يمنع الأمير مجده أن يقف لفقير سائل ويحمله معه فأدخله الزلال وأطعمه وخلع

(١) كذا فى الأصل .

(١) كلمة عباسية مولدة معناها السفينة الحربية .

عليه . ولم يُسائله عن خبره ، لأن النوم قد غلب عليه فهجع كالقتيل قبل أن يسأل وقبل أن يجيب .

ولما أفاق كان المساء قد حلّ ، وكانت بغداد قد بدت ، وسربت الزوارق والسفن على سطح دجلة الفاتن تنشد لهواً وتبتغي لذة ، وتملأ الضفتين نغماً سائغاً ، وحباً ومجداً ؛ وترنحت القصور طرباً ، وانتشت الرياض أنساً ، وتعانق النخيل وتشاكى الغرام . وتراقصت الأمواه من دجلة وتناجت بالحب ، وسكرت السفن وهامت ، وسدرت بغداد في نشوة الظفر ، وكانت بغداد هي الدنيا وكانت دارة الخلافة ، وكانت عاصمة الأرض ، وكانت منبع العلم والفن ، ومثابة الغنى والترف . وكان فيها الصلاح وفيها الفجور ، وفيها الخيرات وفيها الشرور ، وفيها من كل شيء ... وكذلك تكون الدنيا !

وكان دجلة يسير مَزْهوًّا طرباً . فقد بدأ سيره منذ الأزل ، ورأى الحكومات تقوم وتقعد حتى ملّ قيامها وقعودها ، وشهد من بأساء الحياة ونعيمها ما زهّده في نعيمها وبؤسها ، ورأى الأنام حتى كره مرأى الأنام ، ولكنه لم يَرَ أياماً أحلى ، ولا مجداً أبقى ، ولا ناساً أنقى وأتقى ، من تلك الأيام وناسها ...

وجاز الزلال بتلك السفن والزوارق الحالمة السكرى كأنه البطل القوي يمر بالحسان في يوم عرس ، فاجتمع على الصفحة الحب والحرب ، والعز والهوى ، هذا يمثله زلال القائد ، وتلك تمثلها زوارق العشاق ، وكان يمضي إلى غايته مسرعاً كأنه يسابق شعاع الشمس إلى الأفق الزاهي ، وكان هو أيضاً شعاعة من الشمس التي أضاءت الدنيا في هاتيك الأيام ، فأشرقت على القلوب عاطفة وجمالا ، وعلى العقول علماً وكمالا ، وعلى الإسلام عظماً وجلالا ، وعلى الناس كلهم حضارة وتمدناً وسلاماً وأمناً ، وضوّأت لهم طريق المجهول ، وشقت لهم السبيل الموصلة إلى تحقيق المثل العليا في المجتمع البشري ، تلك هي شمس بني العباس إذ كان بنو العباس سادة الأرض .

وأنزله الزلال على الجسر ، حيث قام تلك الليلة ، فأعاده الجسر إلى ماضيه ، فأحسّ بأن هذه السنين كلها لحظة واحدة ، وأنها صفحة قد سقطت من سفر حياته ، فاتصل ما قبلها بما بعدها ، ورأى الناس من حوله فهمّ بأن يسألهم درهماً يشتري به عسلا ودقيقاً وشيرجاً لامرأته التي أخذها المخاض ، وأسرع يريد أن يدركها قبل أن يشتد بها الألم ، ثم انتبه فرأى هذا الحجاب الصفيق من الزمان يقوم بينه وبينها ، ثمان وعشرون سنة ليست يوماً ولا يومين ... دهر طويل ولد فيه ناس ومات ناس ، عمر كامل ... فتهافت وخمدت هذه الشرارة من الأمل التي أضاءت في نفسه ، وسار محطماً مكدوداً ، يبصر الوجوه من حوله فيراها غريبة عنه لا يعرفها ، ويرى المسالك والدروب فيفتش عن ذكرياته فيها فلا يجدها ... حتى بلغ الدار ونظر فاذا الخربة التي خلّف فيها الحبيبة قد صارت داراً فخمة على بابها الجند والشاكرية فوقف ينظر إليها من بعيد ... هذه داره التي رجع اليها ليتخذ لنفسه من ثراها قبراً قد أنكرته وأعرضت عنه . لقد عاد غريباً في بيته ، منكراً في بلده . إنه ميت يمشي بين الأحياء . لقد بحث عن أثر واحد من دنياه التي كان يألفها ، فاذا كل شيء قد تبدل ، فلا الوجوه بالوجوه ، ولا الأمكنة هي الأمكنة : فياويح الزمان كيف صنع ذلك كله ! هذا الجبار المخيف الذي يفعل الأفاعيل ، ولا يحس به أحد ولا يبصره ولا يلمسه بيده ... ثم استغفر الله وأناب إليه ، إنه هو الفاعل المدبر ، فلا الزمان ولا الأحداث بقادرة على شيء ، إنه هو وحده الذي يصرف الأكوان .

وولى ليعود فيضرب في الأرض حتى يموت ، فما يبالي الآن أن يدركه الموت بعد أن حرم آخر أمانيه ، وهي أن يواريه الثرى الذي وارى جسد الحبيبة ، ولم تَسِل من عينه دمعة ، ولم يتحرك لسانه بكلمة وداع ، ولم يفكر في شيء ، فقد تواردت الآلام على قلبه حتى صار هو كتلة من الألم جامدة تسمى قلباً ، وتتابعت عليه المصائب حتى صارت حياته كلها مصيبة ... ويئس من السعادة حتى ما عاد يفكر فيها ، أو يؤلمه فقدها ، وتلفت ليودع المكان الذي اصطفاه من دون الأمكنة ، وأودعه أعز شيء عليه : حبيبته وذكرياته ، ويشمله بنظرة فاذا هو يرى دكان بقال كان يعرفه لا تزال قائمة على العهد بها ، كما يقوم الطلل البالي في المدينة العامرة ، فأسرع إليها ...

وكان فيها شاب حدث علم منه أن أباه البقال مات من عشرين سنة ، وأن الدار لابن داية أمير المؤمنين المأمون وصاحب بيت ماله ، وأن لهذا الرجل قصة عجباً ، فقد كان أبوه من سراة التجار ،

الغازي مصطفى كمال

بحث وتحليل للدوافع النفسية التي دفعته إلى الزعامة

للأســـــتاذ أحمد رمزى بك

[إن من السهل على المرء أن يعمل من أن يفكر ، وإذا فكر فمن أصعب الأمور أن يجعل عمله خاضعاً دائماً لما أوصله إليه فكره] . «جوته»

عند اقتراب نهاية هذا العام يكون قد مضى على وفاة مصطفى كمال ثمانية أعوام ، خرج منها العالم من حرب عالمية طاحنة ، وتمخض فيها بالتغييرات والانقلابات الكثيرة . وكلما مرت الأيام تمثلت إلىّ شخصية الغازى كأنموذج لكلمة جوتة الخالدة : إذ هو من الأفراد القلائل فى الشرق الذين عملوا بعد تفكير طويل ، وأخضعوا أعمالهم لفكرتهم الأولى ، ولما لازمهم التوفيق فى جهادهم ، لم تسكرهم نشوة الظفر ولا شغلتهم مظاهر السلطان عن فكرتهم التى بدأوا منها وأخذوا بها ، ولذلك جاءت حياتهم العامة صورة لما انطبع فى أذهانهم من أفكار وآمال كبار .

إن الزعيم المجاهد والجندى المنتصر قد أصبح الآن فى ذمة التاريخ ؛ ولن يضيرنا اليوم أن نعرض لشىء من حياته وأعماله وخدماته ، فلو كان حيًّا يرزق لقيل لنا إننا نتملقه أو نتملق بلاده وشعبه ولاتخذ بعض الناس ذلك للقيل والقال ، أما وقد خفت ذلك الصوت الهادئ النبرات الذى كنت تسمع له رنيناً عند ما كان يخطب بالمجلس الوطنى الكبير بأنقرة ، وأغمضت العينان اللتان كانتا تشعان نوراً وبريقاً ، فقد أصبح فى وسعنا أن نقول ما نعتقد وأن نكشف الستار عما نعلم وليست لنا غاية سوى إرضاء الحق .

* * *

بين ٢٥ إبريل و ٩ ديسمبر ١٩١٥ كانت حملة الدردنيل حيث دارت رحى الحرب على روابى شبه جزيرة غاليبولى ، وكانت معاركها محط أنظار العالم إذ كانت سلسلة من التجارب للقيادة التركية بل كانت أكبر من ذلك للجندى المقاتل . كانت

فاشترى جارية أولع بها وعكف عليها حتى افتقر ، وجاءها المخاض فذهب يطلب لها شيئاً فلم يرجع ، وأسعفها البقال أبو الفتى ، وولد للرشيد مولود فطلبت له المراضع فلم يقبل ثدى واحدة منهن فدل على الجارية فقبل ثديها ، وصارت ظئره وكان المولود هو أمير المؤمنين المأمون .

ويسمع الرجل القصة فيحس أن الأرض تدور به ، فيمر بآلاف الصور والألوان ، والشكوك والأمانى ، ثم يسأله : وأين أم الولد ؟ ويحسب أن هذه اللحظة التى انتظر فيها الجواب ، قد طالت حتى غدت دهراً ، وأنه كالقائم ليسمع الحكم عليه بالبراءة أو القتل . فيقول الفتى : إنها باقية تغدو إلى دار الخليفة أياماً وتكون مع ابنها أياماً ، ولكنها لا تزال حزينة لم تمسح آلامها الأيام ولم ترقأ لها دمعة .

ويدعه الرجل ويركض إلى الدار يشعر أنه يمشى فى الزمان ، يعود أدراجه إلى لياليه الماضيات ، إلى عهد الحب الضاحك ، ولياليه المترعات بالقبل . لقد نسى فى هذه الخطوات كل ما لقى من شقاء ، وما حمل من ألم ، وامتلأ قلبه شكراً لله الذى استودعه حبيبته وما فى بطنها فما ضاعت عنده الوديعة ، هذه الحبيبة التى طالما بكاها يحسبها ميتة وجاء ليدفن جسده الوانى بجانب رفاتها ، قائمة تنتظره لتمنحه عطرها وسحرها ونحرها ، وهذا الجنين الذى خلفه على باب الموت شاباً ممتلئاً قوة وأيداً ومالا ومجداً ...

ووصل إلى الشاب ، فقال له : ما تبتغى ؟

نخفق قلبه ، وتلاحقت أنفاسه ، وهمت مقلتاه ، ولم يجد ما يمهد به الحديث ، فقال له :

— أنا أبوك !

ونظر الشاب شاكا ، وقال له : اتبعنى ، فاتبعه فاجتاز به صحناً بعد صحن ، حتى انتهى إلى مكان الحرم فأقامه أمام ستارة ، وذهب ليسأل أمه ، ودلّ الرجل قلبه على أن الحبيبة وراء الستارة فناداها ، وإذا الستارة تهتك ، والمرأة تثب إلى عنق الرجل ، تبكى وتضحك وتضحك وتبكى وتقول ما لا تدريه ...

ويدير الشاب وجهه فما يحسن به أن ينظر إلى أبويه وهما يعيدان عهود الهوى والشباب ...

على الطنطاوى

له مدرسة قاسية وامتحاناً وعراً أظهرا مزاياه وصفاته ، فني معركة أنافارطة أوقفت هذه الصفات الخلقية الكامنة في نفسه الهجمات البريطانية المتراصة المتتالية المتتابعة كأمواج البحر .

وكان ذلك تحت قيادة رجل نحيف الجسم عصبي المزاج امتاز على أقرانه الضباط بعناده وقوة شكيمته : ذلك هو الأميرالاى مصطفى كمال الذى أقدم فى ساعة من ساعات التاريخ الفاصلة لحمل عبء أفدح المسئوليات التى تواجه رجل الجندية ، إذ كان الموقف جدىّ الخطورة ، وكانت القيادة فى قلق من انهيار الجبهة إزاء هجوم بريطانى حاسم ، ولم يكن الوقت يتسع للمداولة وتبادل الرأى فلم يكن لديها سوى رأيين يتلخصان فى نعم أو لا ، فنعم كانت قبول الهزيمة وما يتبعها من تراجع وفشل وسقوط العاصمة والفناء ، و«لا» كان معناها قبول المعركة فى ظروف سيئة ولكن فيها الثبات والعناد والمصادمة والمقارعة حتى يتم النصر .

وكان القائد الأعلى للجبهة الجنرال فون ساندوس الألمانى وهو من خيرة ضباط السوارى فى الجيش البروسى قد وجدها كبيرة عليه أن ينطقها لما تحتمله من المجازفة فى دخول معركة تبدو خاسرة ، فهو ليس من أهل البلاد ، وهو يعلم جيداً أن الفن العسكرى والعبقرية لا يجديان شيئاً أمام ساعات التاريخ الفاصلة ، وأمام القرارات الحاسمة ، التى لا تصدر عن إرادة القائد الحربى ، إلا بعد أن يدعمها الشعور القومى الواعى ، والإحساس الوطنى الوافر الذى يربط المرء بأرض بلاده وتاريخها ويجعله يشعر بأخطار المستقبل وبالمسئولية أمام الوطن ، وفى مواجهة الأجيال القادمة .

ولذلك ألقى العبء والمسئولية على عاتق مصطفى كمال ، فتولى المعركة وأعلن للقائد الألمانى « أن الهاجين لن يقتحموا الجبهة وأنه يتحمل وحده مسئولية ونتائج المعركة التى تبدو خاسرة » .

واعترف مصطفى كمال بأن الذى دفعه لذلك هو إيمانه بأن الجنود الذين تحت إمرته سيبذلون ما فى طاقة البشر للقيام بواجبهم وأنهم سيقبلون التضحية بمجرد اشتباك القتال وأنهم سيثبتون فى مراكزهم ، وحقت فكرة قائدهم فقد ظهر جندى المشاة فى الصورة التى رسمها فى مخيلته مصطفى كمال . وهكذا ذاقت تركيا طعم النصر بعد سلسلة طويلة من النكبات والهزائم . فكانت وقفة رائعة لفتت الأنظار إلى عبقرية هذا القائد حتى إنه عند زيارته لألمانيا بادره الامبراطور غليوم عند ما قدم إليه بقوله : « الفرقة التاسعة عشرة أنا فارطة » ونظرة عابرة تريك ماهى هذه الوقفة .

إن القطع العسكرية التى فى الخطوط الأمامية ذابت تحت نيران المدفعية وقذائف الأسطول ونيرانه المركزة ، ولكن لم يتراجع أو يفر فرد واحد منها ، بل فنيت بأكلها حتى آخر جندى فيها ، وكانت عظيمة فى موتها واستشهادها لأن الطلقات التى استمرت تقذف بها أوقفت الهجوم فى أشد الأوقات وأنقذت الجبهة إذ لم يطأ العدو خنادقها إلا بعد أن لفظ آخر جندى بها أنفاسه الأخيرة .

أما الفرق التى تجمعت فى الخطوط التالية فقد كانت تسير إلى الموت وقد ظهر تصميم القتال على وجوه أفرادها ، كانت رائعة فى مواقفها وفى ثباتها وهى تتراص ، كانت قد تحملت نيران العدو وقذائفه ثلاثة أيام بلياليها ، لم تؤثر فيها أيام الانتظار ولا ساعات السير على الأقدام من موقع لموقع . كان يخيل إلى من رآها أنها قد أتت من المؤخرة من ساحة العرض أو احتلت مراكزها بعد راحتها وكأنها لا تعلم بما يدور حولها أو كأنها لم تر بعينيها سوق الموت القائمة .

نعم كانت معنوياتها وأعصابها باقرار كل من كتب عن هذه الحرب من النقاد الحربيين من البريطانيين والألمان وغيرهم ، فوق المستوى العادى للبشر فى الساعة التى رأت قائدها العنيد يباشر القتال بنفسه ويصدر أمره مقتحما أول ربوة واجهته ليقودها إلى النصر ، ولذلك جاء هجوم هذه الوحدات كاعصار يدك كل شىء ، ولم يكن الخصم ينتظر دفاعاً مثل الذى لقيه فى أول يوم ولا هجوماً كهذا ، وعليه ولى الهاجون الأدبار وأخلوا المواقع التى احتلوها متجهين إلى البحر ، وفى مساء آخر يوم للمعركة جاء قائدهم من جزيرة لمنوس على باخرته من الجنوب ليشهد الشراذم تتجمع على الشاطئ لركوب القوارب ، كانت بقايا الوحدات المنظمة التى قذف بها على الجزء الغربى من غاليبولى : وكان أن اتخذ الأتراك اسم المعركة لقباً لأبطالهم خلفوا بانافارطة واحتفلوا بها واتخذوا يومها عيداً لهم يعيدون فيه ويشيرون إلى أن بعثهم من جديد كأمة بدأ من ذلك اليوم .

واختتمت معركة أنا فارطة بأيامها ولياليها والقمر شاهد عليها بالنصر الذي جعل أعظم قوات العالم تبدّل وتغيّر في خططها الكبرى واستراتيجيتها ثم تقرر إخلاء شبه الجزيرة ، وانتهت بذلك حملة الدردنيل بعد أن فتحت الطريق للقواد والنقاد والكتاب الحربيين بضمون المؤلفات عن تاريخها وأيامها ومواقعها فإذا نحن أمام مكتبة فيها عشرات المجلدات بمختلف لغات العالم ما تقرأ مجلداً بالانجليزية حتى تراه مترجماً للتركية وترى مثيله فيها ، وما تجد مؤلفاً بالألمانية حتى تجد ما يساويه بالفرنسية ، استعرض كاتبوها مواقع البر ومعارك البحر وحدّدوا سير القتال ومواضع الزحف وانتقدوا عمل الأساطيل كما انتقد رجال البحر عمل رجال الجندية ، وتبين من أقوال الاختصاص أن مشاريع اقتحام المضايق درست وبحثت ووضعت تفاصيلها منذ عام ١٩٠٦ ، وضع المؤلفون كتبهم وتداولها الناس ولكن رجلا واحداً بقي صامتاً لا يتكلم هو مصطفى كمال صاحب المواقف الحاسمة وبطل أنافارطة ، إنه لم ينسب لنفسه شيئاً بل قال : « إن ما حصل عليه من مجد ليس من عمله ؛ إنه نتيجة كفاح الجندي التركي وحده » ذكر مراراً ذلك وأعاده وكرره .

لقد انتهت المعركة التي جعلت منه بطلا عالمياً وخفتت أصوات المدافع وزمجرة البطاريات السريعة الطلقات وزالت الأخطار عن عاصمة آل عثمان فأقيمت الأفراح فإذا بأنصاف الرجال يدقون الطبول ويرفعون أرباع الرجال إلى السماء ، وإذا بهم يتقاسمون الأسلاب ويفرحون بما لم يفعلوا وينسبون أمجاد الغير لأنفسهم ، ووقف القائد العنيد يدخن سيجارته بهدوئه وصمته وقد اتجهت أنظاره إلى آفاق بعيدة ، فما الذي أوحت به إليه تلك الأيام الحالكة السواد وهذه المعارك الفاصلة ، وماذا تركت في نفسه من دوافع وما حملت إليه من أفكار ؟ لقد كانت إقامته وقتئذ بمركز قيادة الفرقة التاسعة عشرة بشبه جزيرة غاليبولي ، وكان يقضي الأيام والليالي في وحدة شاملة وقد تجمعت أفكاره واتجهت إلى مستقبل هذا الوطن الجريح ، وقد اخترقت عينه النافذة ما وراء الحجب فإذا هي تبصر ما يحيط ببلاده من الأخطار وما يحاك حولها من مكائد وما يرسم ويدبر من خيانات ، وما يرقبها من أهوال ونكبات .

في لحظات التركيز والوحدة استرد مصطفى كمال ثقته في نفسه وإيمانه في أمته ، فأيقن أن الأقدار قد حمّلته رسالة مقدسة هي إنقاذ تركيا من مصائبها . ويحدثنا عن نفسه في تلك الفترة الرهيبة فيقول : أخذت تتنابه الأفكار وترتاده الآمال الكبار وهو يحركها في بوتقة التحليل مستعيناً بمنطقه الجبار فيفرز الغث من السمين ويطرد الهواجس والأحلام والخيالات الوهمية من نفسه بل يجتهد أن يحرر عقله منها ، وأخيراً وجد ضالته فقال :

« إن الامبراطورية التي أقامها بنو عثمان من بقايا ملك آل سلجوق وقدّر لها أن ترى فتح القسطنطينية يتحقق على يديها ، هذه الدولة التي سبّبت المتاعب والمخاوف لأوروبا وشموبها ودانت لها الدنيا ستة قرون لم تعد شيئاً مذكوراً بعد الضربات التي تلقتها من أعداء الداخل والخارج ، فكل عمل يبذل لإنقاذها سيذهب هباء منثوراً » .

واضطربت نفسه أمام نكبات تركيا المتتالية وحروبها التي لا تنقطع فأراد أن يجد لذلك مبرراً من دروس الماضي متسائلا لماذا كانت بلاده من بين بلاد العالم هي التي توجّه إليها الضربات والهجمات من كل جانب ؟ حاول أن يجد تفسيراً لذلك فقال :

« إن الأعلام الحمراء التي ظهرت في آسيا وحملتها جيوش المسلمين إلى أوروبا حتى ظللت أسوار فينا ، وقفت هناك وقفتها الأولى وكان ذلك في القرن العاشر من الهجرة ، كما وقفت من قبل أعلام العروبة والإسلام(١) في تود وبواتييه من أرض فرنسا في القرن الأول قبل الوقفة الثانية بتسعة قرون » .

« إن العهد الذي لقي فيه المسلمون أولى هزائمهم وفترت فيه معاركهم الزاحفة الفاصلة قد حرّك روح الانتقام لدى أعدائهم وأن القاعدة أن كل هجوم تعقبه فترة هدوء واستجمام للمهاجم ولكن هذا لا يمنع أن كل تصادم يحرّك تصادماً وكل هجوم يعقبه هجوم مضاد ، فالهزيمة التي أوقعها شارل مارتل بجيوش المسلمين في فرنسا كانت فاتحة الهجوم المضاد الذي شنّته أوروبا على العرب في أراضيها والذي دام ثمانية قرون حتى قذفت بهم

(١) لا يندهش القارىء من ذكر فتوحات العرب فقد أوردها بالنص في خطبه وتحدث عن هذه النظرية مراراً وهو من أقدر الرجال في استخلاص الحقائق من التاريخ .

على الشاطىء الأفريقى ، ولم تقف عند ذلك الحد ، بل استجمعت قواها فى القرنين التاسع عشر والعشرين وأخذت تطارد العرب فى ديارهم وتنزع من أيديهم الجزائر وتونس ومراكش ومصر وطرابلس ، وما ملاحقة هذه الشعوب والعمل على إفنائهم وإسكان الأوروبيين بأراضيهم سوى حلقة من حلقات ذلك الصراع الصليبى الذى بدأ من تور وبواتييه أو قل هو الثمن الذى يدفعه العرب نتيجة لهزيمتهم فى قلب فرنسا » .

« أما الأتراك العثمانيون فقد أثاروا الهجوم المضاد عليهم من يوم هزيمتهم تحت أسوار فينا إذ تلاحقت عليهم النكبات فى خلال ثلاثة قرون ، فرض عليهم القتال فيها ولم تبق أمة من أمم أوروبا إلا اشتركت وساهمت فيه بحق وبغير حق ، بل وافتخرت بما سفكت من دماء المسلمين وبما أفنت من رجالهم وبما مزقت من أشلائهم وبما خرَّبت من مساجدهم وآثارهم وقبورهم . لقد تجمعت على الأتراك القوى من كل جانب وحاصرتهم فى البر والبحر ولم يبق بعد طول العراك سوى هذه البقعة من الأرض يرفرف عليها علمهم : فما قيمتها للجندى المقاتل الذى أغمض عينيه للمرة الأخيرة أمام نظر قائده ؟ هى له الموئل والمآل فهل هى النهاية كما كانت للأجداد بداية ؟ » .

فى ليلة من ليالى أنقرة بقصر نشان قايا أخذ الزعيم يشرح هذه النظرية أمام جمع التف حوله فقال : « إن المعارك التى خضنا غمارها بالأمس والتى سندعى لغيرها بالغد هى حلقة من حلقات هذا الهجوم المضاد القاسى الذى شنَّه الغرب علينا وأثاره الترك بزحفهم إلى فينا كما أثاره العرب بفتوحاتهم الأندلسية ودخولهم إلى قلب فرنسا » .

قال إنه بعد معارك الدردنيل وفى وسط حرب الاستقلال كان يحدِّث نفسه قائلا : « لقد فرض علينا الأعداء أن نفنى لأننا كنا أقوياء وخيِّل إليهم أن جهادنا التاريخى قد انتهى وأننا نعالج سكرات الموت فى الموقع الأخير the hast fost فهل تنفخ فى البوق النغمة الختامية على أجساد آخر المقاتلين من بقايا تلك الملايين التى جادت بالأرواح فى حومة الوغى وتطوى تركيا وتحمل إلى اللحد كما فنيت وطويت آشور وروما وكما زال فرعون وثمود وعاد » .

حدَّث عن نفسه قائلا إنه فى أسوأ المواقف كان يشعر « بأن هذا لن يكون وأن بلاده ستبعث قوية وستحيا إلى الأبد » .

وهنا التفت وصوَّب نظراته النافذة وخرج كلامه قوياً فقال « إن إطلاق النظريات الإنشائية والآمال والأفكار الكبرى سهل على النفس ولكن التمسك بها والسير على ضوئها صعب ، لأن هذا يستلزم أولا إخراج ما يلابس هذه النظريات والمبادئ من عوامل السلبية وما يلازم الفكر البشرى من عناصر الضعف والتردد ، إن الأفراد الذين ينصبون أنفسهم لخلاص الوطن يجب عليهم أن يتجردوا من أشياء كثيرة عزيزة عليهم » .

ذلك مبدؤه الذى نادى به فى تلك الليلة ؛ وتفسير ذلك أن معارك الدردنيل أصبحت له قوة دافعة بل كانت حداً فاصلا فى حياته إذ أمضى الشهور ونفسه متوثبة متطلعة تحت تأثيرها ، ولكن ما لبث أن واجهتها الحقائق : عادت إليه ذكريات الهزائم المتتالية وأخذت تبدو إليه العاصمة بمظاهر التفكك والانحلال الخلقى وعوامل الهدم وتأثرت نفسه لما استعرض تاريخ الحروب والمعارك التى كسبها مقاتلة الترك ثم أضاعها رجال السياسة والمواقف التى اكتسبها هؤلاء فى ميادين السياسة وأضاعها رجال الحرب فى ميادين القتال .

وبرزت تركة الرجل المريض المحتضر على حقيقتها محمَّلة بالأعباء والمصائب وبدا المستقبل قاتماً مظلماً كالليل . تلك هى النواحى السلبية التى أخذت تساوره فى الأيام التاريخية التى وقعت بين حملة الدردنيل وعودته من ألمانيا ، قال « إنه وجد أمامه بصيص نور من أنوار الأمل هو ذلك الضياء الذى ارتسم على وجه الجندى التركى فى معركة أنافارطة حينما لقى الموت وهو قرير العين ، كانت ابتسامة تحمل الخلود للأمة التى أنجبت هذا المقاتل الذى لقى ربه وهو ضاحك بعد أن أدى واجبه نحوها » .

وكتب مصطفى كمال فقال : « لو قدِّر لهذا الجندى أن يجد القيادة الحازمة ، ولو لمس الإخلاص الذى يشع من قلبه فوجده فى قلوب الساسة والقادة لغيَّر وبدل ما كتبه التاريخ فى عصور الانحطاط ولأعاد مرة أخرى عهد الدماء القوية التى حملت الأعلام الحمراء إلى قلب أوربا وفرضت النصر فى كل معركة دخلتها . إنها ليست أخطاء الشعب إنها خطايا القادة التى أوصلتنا إلى ما نحن فيه»

على هامش النقد :

شعر من الجزيرة

للأستاذ سيد قطب

١ — الهوى والشباب : أحمد عبد الغفور عطار
٢ — الشاطئ المسحور : محمد عبده غانم

هذه تحية لا نقد ؛ فتلك بواكير يقظة فى قلب الجزيرة ، ما أجدرها منا بالتحية ، لا لأنها لا تثبت للنقد ، ولكن لأن التحية هنا أليق !

وهما ديوانان من الشعر ، والشعر فى هذه الفترة يعانى أزمة ، فبين مئات الكتب التى صدرت فى فترة الحرب بوفرة ، لم تصدر إلا دواوين قليلة تعد على الأصابع ، وذلك موجب آخر من موجبات التحية !

شعر من الحجاز وشعر من اليمن . . وقد اعتدنا أن ننتظر الشعر فى لبنان ومصر ، وفى سورية والعراق ، وربما فى تونس ، فقد نبغ فيها الشابى شعلة تضوى ثم تخبو سريعاً ، فها هو ذا الحجاز ، وها هى ذى اليمن تساهمان أيضاً بنصيب ... فما أجدرهما بالتحية !

وكم ذا يسرنى — كمصرى مشتغل بالنقد الأدبى — أن أستقبل هذا النتاج ، وأن أضم يدىّ على طاقة من تلك الزهرات من مشرق الشرق العربى إلى مغربه ، فمصر كثيراً ما تتهم بالتقصير فى حق جيرتها ، فهى فى عرف بعضهم غافلة أو متغافلة عن خطوات النهضة الأدبية فى البلاد الشقيقة .

وهذا ظلم لمصر ، فما أحسبها قصرت فى التنويه بأى أدب ، ولا بأى أديب وصلت إليها أنباؤه ، وإنى لأعلم أن صحافتها تفسح لأبناء البلاد العربية ما لا تفسحه لبنيها ، وتؤثر بريد البلاد العربية على بريدها ؛ ولا تجد فى نفسها غضاضة ولا حسداً أن يتفوق بعض أبناء الشقيقات على بعض أبنائها ؛ وإنها لحفية بكل مايصل إليها من هناك . أما الذى لا يصل فليس الذنب ذنبها ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وقبل أن يلومنا الإخوان على إهمالنا لنتاجهم ، يجب أن يسألوا أنفسهم : هل بلغنا نبأ ذلك النتاج ؟ هل هو يباع فى أسواقنا ؟ هل أعلن عنه فى صحفنا ؟ هل وصلتنا صحفهم التى أعلنت عنه ؟ وإلا فما نجد سبيلا إلى الحصول على كتب مما يصدر فى كثير

ولم يدر مصطفى كمال فى تلك الفترة أن ابتسامة الشهيد التى رآها هى نفحة من نفحات الإسلام يرزقها المولى لمن ذاق حلاوة الإيمان فى قلبه ولقى الموت وهو يؤدى فرض الجهاد ابتغاء مرضاة الله ، وفى سبيل الله وعملا بما أمر به الله . فهى ليست دليلا على تفوق المنتصر بل هى آية من آيات الرسالة المحمدية للناس كافة

إننى أكتب هذه الكلمة بعد إقامة سبع سنوات بتركيا وبعد أن التقيت بمئات من المسلمين من أنحاء الأرض منهم من جاء من كاشغر عاصمة التركستان الصينية ، ومنهم من كان فى القرم وفى قفقاسيا وعلى نهر الفولجا : لأقرر أن الثورة الكمالية فى عنفوان شدتها ، والثورة الشيوعية بأساليبها التى لا يقرها العرف وكلاهما فى إبان القوة والبطش لم يستطيعا التغلب على الإسلام فى البلاد التى رسخ فيها ، وإن الذين خُيِّل إليهم أن سلطان الإسلام قد زال من الأقاليم الأسيوية الخاضعة للسوفييت وأن ظله قد تقلص من تركيا واهمون : وسيبعث الإسلام ودين محمد فى تلك الجهات ويعود على صورة تبهر العالم .

إن أقوى التعاليم الدنيوية والنظريات لا تلبث أن تهوى وتذبل مع الزمن ، أما قواعد الثورة المحمدية الكبرى التى أودعت فى تعاليم الإسلام وأتت بها النبوة فباقية مع الزمن فى أفئدة الشعوب والجماعات والأفراد وحتى الذين خرجوا عليها وشقوا لأنفسهم الطريق بعيداً عنها ونابذوها العداء لا يلبثون أن يعودوا إليها ، وما مصطفى كمال إلا واحد من هؤلاء ستكشف الأيام الكثير عن روحه الحائرة وسنعود يوماً لدرس هذه النفس المتمردة من ناحية الإيمان والعقيدة وكل آت قريب .

(يتبع) **أحمد رمزى**

من البلاد العربية إلا أن نقوم برحلة إلى هناك ، وهذا ما لا يستطاع لكل فرد فى كل آن .

لقد أعلنت مرة فى « الرسالة » — وهى مقروءة فى كل بلد عربى — أننى فى حاجة إلى كل ديوان شعر وإلى كل قصة أو أقصوصة طبعت فى شتى البلاد العربية ، لأن لدى بحثين معطلين عن : « الشعر المعاصر » وعن « القصة الحديثة » ، ولأننى كرهت أن أقتصر على الشعر المصرى وعلى القصة المصرية ؛ وقلت : إننى لا أطلب « هدايا » ، ولكننى أطلب هذه الكتب محوّلا بثمنها على البريد ، ذلك أننى لا أجدها فى السوق المصرية ، ولا أجد لى سبيلا إليها . فماذا حدث ؟

حدث أن تفضل بعض الشعراء والأدباء فى فلسطين والعراق والحجاز بإهداء دواوينهم وقصصهم إلىّ ، ولكن البقية لم تصلنى كما أن سورية ولبنان لم يسمعا النداء ، وهمس بعضهم فى أذنى : إن هناك موجدة على مصر لأنها تصدر أدبها ولا تستورد آدابهم وهذا غريب . . فلقد اشترينا هنا كل ما صدر إلينا من هناك ، ومن سورية ولبنان خاصة ، وإننى لأكره هذه النغمة ، إنها نغمة مقيتة — وفى جو الأدب خاصة — فكلنا شركاء فى النهضة ومصر تؤدى واجبها الذى فرضته عليها الظروف ، وإنها لتجد نفسها سعيدة حين تنهض شقيقة لها أو أكثر بالمشاركة فى العبء فهو عبء أثقل من أن تنهض به وحدها ، وما يجوز أن ترتفع هذه النغمة المقيتة فى بلد من البلاد الشقيقة

فلندع هذا كله لنعود إلى تحية الشاعرين والديوانين

***

هنالك شبه عجيب بين النسيج الشعرى فى كلا الديوانين ، فهو نسيج رقيق هفهاف ، والشعر الحجازى القديم مشهور بالرقة والعذوبة ، والشعراء الغزلون قد نشأوا هناك ، فديوان « الهوى والشباب » ليس غريباً فى بيئته ، فالظاهر أن الرقة والعذوبة ما تزالا كامنتين — تحت الشظف — فى مدائن الحجاز . أما « الشاطئ المسحور » ، فيبدو أنه يستمد عذوبته ورقته من خصب اليمن ورواثها التاريخيين ، فالبذرة هناك كامنة ما تزال .

وإذا كان فى شعر الأستاذ « عطار » جزالة تمازج الرقة فى بعض الأحيان ، فإن فى شعر الأستاذ « غانم » انسياباً وسيولة دائمين فى جميع فصول الديوان ، ولكنهما قريب من قريب .

وإليك قطعتان من الديوانين :

يقول صاحب « الهوى والشباب » بعنوان « وعود الغانيات » :

وعودك يا غادتى جمـــة ولـكن إلى اليوم لم تصدقِ
كأنك لم تبصرى عاشقاً ألح به الحب لم يشـــفق
يعيش بمـــاله كاسفاً ويغـــرقه الهم للمفرق
يســـير بلا وعيه ناجياً إليك ... إلى بيتك المغلق
عساه يرى طيفك المشتهى يلوح له كالسنا المشرق
ويسمع صوتك جم الحنان يغرد كالبلبـــل المطلق
فيحسبه أغنيات الخلود ترف على قلبه الشـــيق
فهلا رحمتِ الفؤاد الحزين وأنجيته من ردى محدق
وهلا أنلت الرضى مغرماً يصافى الوداد ولم يمذُق !
بهجرك أمسى يذوق اللظى ولو أنت وفّيت لم يوبق
ولولاك ما اجتر آلامه وأمسى صريع الهوى المطبق
وعاش على أمل شـــارد يلوح كآل الفلا المرهق
فإنك إن تكذبيه الوعود فليس سوى يأسه المُعْنِق
ألا فاصدق مرة وامنحى حبيبك رشف الجنى الرّيق
فقد صرعته أكف الخطوب وما انفك عن حبه الموثق
وصفق كفيه غل الأمى فضاع حجاه مع المنطق

ويقول صاحب « الشاطئ المسحور » بعنوان « أنين » :

لست تمشين على الأرض ولـكن فـوق قلبى
تلك أنغـــام خطىً قد مازجت روحى ولبى
ثقّلى الخطـــو كما شئت ولا ترثى لصب
ضـــاق بالآلام والآمال فى بعد وقرب

ما براك الله مثل الناس من لحم وعظم
أنت إشعاع من القدس لقلبى المستحم
جمّع الله بك الألوان فى أبدع نظم
وأرانا كيف يجلو آية الحسن الأتم

كم تعرضتُ لعينيـــك لـكى أحظى بنظره
وتمنيت بأن أرشف من ثغرك قطره
وتحايلت لـكى ألمس من جَعْدِك شعره
وتلويت لـكى أقطف من وردك زهره

وتمرّين كأنى لست موجـــوداً بقربك

وكأني ما ملأت الكون أشعاراً بحبك
لا تغضى الطرف عنى وانظرى نحوى بربك
أنا والله الذى ترضين لو عشت لقلبك

أنا لحن فى فم البلبل ترويه الرياح
ورحيق فى كؤوس الحب تحسوه الملاح
وشعاع فى الثرى النعسان تزجيه الصباح
وشذا ما منه للهائم بالروض براح

لست أدرى ما الذى تخشين منى لست أدرى
وأنا الشاعر لا أرضى لمخلوق بضر
أنا لولا لوعتى صنتك فى قلبى كسر
ومنعت القلب أن يخفق حتى لا تفرى

كم يقاسى الشاعر الهائم فى دنيا الجمال
كم له من أنة حمراء فى سود الليالى
ودموع دونها لولا الهوى رطب اللآلى
قد جرت فوق الروابى وتلاشت فى الرمال

أنت يا رب الذى أوجدت فينا الشاعرينا
وجعلت الحب للشاعر فى دنياه دينا
كلما لاح جميل جن بالشوق جنونا
ومضى ينفث فى آهاته الداء الدفينا

لست أدرى لم خلقت الحب يا رب غشوما
وملأت القلب بالإحساس والوجد جحيما
لو محوت الحسن ما ذقنا به الذل الأليما
أو مسخت القلب صخراً عاش كالصخر كريما

أنت قد سلحت يا رب الحسان الفاتنات
بلحاظ فاتكات وقدود طاعنات
وحرمت القلب فى بلواه من درع الثبات
فهو بين الضرب والطعن على وشك الفوات

***

هاتان القصيدتان تمثلان فنى الشاعرين كل التمثيل ؛ وحينما يبدو من الأستاذ «عطار» ميل إلى اتباع «عمود الشعر العربى» يبدو من الأستاذ غانم ميل إلى الرومانتيكية «الإبداعية» ثم يجتمع كلاهما على الرقة والعذوبة كما رأينا .

وقد أثبت القصيدتين كاملتين بما فيهما من مواطن الضعف ومواطن القوة فى الشعور وفى التعبير ، لأننى أرمى إلى التعريف بالشاعرين . ولقد يدهش الكثيرون أن يجدوا مستوى الأداء قد وصل إلى هذا الحد فى الحجاز وفى اليمن ، لأننا حديثو عهد بالنهضة الأدبية فى هذين البلدين الكريمين .

وقد يكون الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار معروفاً للقراء فى مصر ، لأنه كتب فى بعض صحفها ، كما نشر من قبل كتابين : «كتابى» و «محمد بن عبد الوهاب» ، والأول مجموعة مقالات لها قيمتها فى الأدب والاجتماع والسياسة . والثانى دراسة طيبة لحياة المصلح الكبير «محمد بن عبد الوهاب» ، فكتبت عنهما الصحف المصرية مثنية مشجعة .

أما الأستاذ محمد عبده غانم ، فيسرنى أن أقدمه شاعراً عذب الإيقاع ، رقيق العبارة ، حلو الروح

وإنه ليسرنى أن أجمع بين الأدباء والشعراء فى جميع البلاد العربية ، وبين قراء «الرسالة» فى مصر وفى هذه البلاد مرات بعد مرات ...

سيد قطب

مجالس الأدب:

في إحدى ليالي رمضان

للأستاذ كامل كيلاني

[تثبت فيما يلي نص الحوار الطريف الذي دار بين ثلاثة من أدباء مصر وشعرائها في إحدى ليالي رمضان كما أذاعته محطة الشرق الأدنى]

١ — المعري يصوم ويصلي

عبد الغني : بمناسبة شهر رمضان ، هل كان كبار الشعراء — يا أستاذ كامل — يصومون ؟ وهل كان أستاذك المعري يصوم ؟

كامل : ويُصلِّي أيضاً .

عبد الغني : إذ يقول في الصلاة يا أستاذ كامل .

كامل :

« وأعجز أهل هذي الأرض غاوٍ أبان المعجز عن خمس فرضنه »

ولكنه يريدها صلاة خالصة لوجه الله ، وإلا حلت اللعنة على صاحبها .

عماد : إذ يقول ؟ يا أستاذ كامل . . .

كامل :

« إذا رام كيداً بالصلاة مُقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقربُ »

ولن يصح تدَيُّنُ الإنسان — فيما يرى — إذا اقتصر على الصلاة والصوم ، دون أن تخلَّص نفسه من أرجاسها ، وتكفَّ أذاها عن الناس .

عبد الغني : وما الذي يحضُرُك من شعره يا أستاذ كامل ؟

كامل :

« ما الدِّين صومٌ يذوب الصائمون له
ولا صلاةٌ ، ولا صوف على جسد
وإنما هو ترك الشر مطرحاً
ونفضُك الصدر من غل ومن حسد »

عماد : أو يقول ؟

كامل : ما أكثر ما يقول في هذا المعنى — يا صاحبيَّ — وما أبرع قوله في هذا الباب :

« إذا الإنسان كفَّ الشر عني فسقياً — في الحياة — له ورعيا
ويدرسُ — إن أراد — كتاب موسى
ويضمر — إن أحبَّ — ولاء شعيا »

عبد الغني : فهل كان يصوم يا أستاذ كامل ؟

كامل : كان صائم الدهر ، يصوم عن الأكل كما يصوم عن الأذى والشر .

عبد الغني : وماذا قال في هذا الباب يا أستاذ كامل ؟

كامل :

« أنا صائم طول الحياة ، وإنما
فطري الحمام ، وذاك حين أُعَيِّدُ »

٢ — عقيدة المعري

عماد : إذن يا أستاذ كامل كيف تعلل اتهامه في دينه ؟

كامل : لم يتهمْهُ في دينه إلا قاصرٌ أو مُقَصِّرٌ في درسه ، أو راغبٌ في إذاعة مبادئ الشك على لسان غيره ، أو متسرِّع في فهم مراميه ، أو رجل يُحسن الظن بآراء بعض الباحثين ، فلا يُعَنِّي نفسه بمناقشتها وتمحيصها ، أو ببغاء يُردد ما يسمع بلا تعقل .

عبد الغني : فكيف تعلل قوله :

في القدس قامت ضجة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح
كلٌّ يعلل دينه ياليت شعري ما الصحيح ؟ »

كامل : إن السخرية واضحة في الأبيات كما تريان ، ولعلكما تذكران الآية الكريمة : « كل حزب بما لديهم فرحون » كما تذكران الآية « وإنَّا — أو إيَّاكم — لعلى هدًى أو في ضلال مُبين » . ولن يدور بخلد كائن كانَ : أن الرسول (ص) كان شاكًّا في أنه على هدى ، وأن مجادليه في ضلال مبين .

عبد الغني : فكيف تعلل اضطرابه وتناقضه في شعره يا أستاذ كامل ؟

كامل : لم يضطرب أبو العلاء ، ولم يتناقض . ولكن اضطرب فى فهمه المتسرعون وتناقضوا ، ورأى بعضهم — فى مرآة نفسه المضطربة — صورته ، فحسبها صورة المعرى ، وهو منها برىء .

على أن المخلصين فى فهمه ، ممن رموه بالتناقض ، نسوا الحكمة التى درسوها فى مستهل حياتهم ، وهى : « لكل مقام مقال » فكان مثلهم مثل من يُنصت إلى رجل : فيسمعه مرة يقول لولده مُغرياً : « لا شك عندى فى أنك باذلٌ فى دروسك يا ولدى قصارى جهدك وسيكون لك إن شاء الله شأن عظيم . ولتبلغن بجدك أعلى المراتب وأسماها » .

ثم تسمعه مرة أخرى يقول له :

« لن تنجح يا ولدى ما دمت مستسلماً لكسلك ، متمادياً فى غيك ، مسترسلا فى تهاونك » أو يقول له غاضباً ثائراً : « والله لا أفلحت أبداً » .

فيزعم أن الوالد متناقض مضطرب ، لأنه يتمنى لابنه النجاح مرة والاخفاق مرة أخرى ، وينسى أنهما أسلوبان متباينان يهدفان — على اختلافهما — إلى غرض واحد : هو حفز الولد إلى الخير . وكلاهما يعبر عن حب أبيه لولده وحرصه على نجاحه .

***

وما أدرى — أيها الصديقان — كيف يشك فى صدق إيمان هذا الرجل ، دارس متعمق حصيف ، يجمع بين الإنصاف والإحاطة والفهم ؟

كيف يشك فى حسن عقيدة من يقول :

أقر بأن لى رباً قديراً ولا ألقى بدائعه بجحد

أو يقول ويصل إلى ذروة الإبداع :

تعالى الله ، وهو أجل قدراً من الإخبار عنه بالتعالى

إلى آخر ما يقول ، فما أننا بحاجة إلى أن أتلو ما يزخر به شعره ونثره من الآيات الدالة على سلامة عقيدته ، وخلوصها من الشكوك والأوهام .

٣ — الفطرة المؤمنة

وقد علمتما — يا صاحبىَّ — أننى عرضتُ لهذا الموضوع فى مناسبات عدة لا سيما فى رسالتَى الغفران والهناء ، وكتابى على هامش الغفران ، وحديقة أبى العلاء وربما أنجزت كتاب « عقيدة المعرى » وأعددته للطبع بعد قليل .

حسبكما الآن قوله فى رسالة الغفران ، ولعله — على وجازته — أبرع ما رأيت فى هذا الكتاب ، لأنه يقرر فى بلاغة علانية فاتنة : أن الإنسان مؤمن بغريزته ، وأن الله سبحانه قد وهبه فطرة مؤمنة تعصمه — إذا لاذ بها — من الزَّيغ والإلحاد ، كما يعصم الحصن الحصين من يلوذ به ويحميه من المغيرين وإليكما ما قال :

« والتأله (يعنى : الإيمان بالله) موجود فى الغرائز ، يكون لهنَّ كالألجاء الحرائز (يعنى : كالحصون الحصينة كما تعلمان) »

وبهذه الجملة البارعة يلتقى المعريُّ بما أبدعه لامرتين فى قصيدة « الخلود » وهى من غرر الشعر الفرنسى وروائعه .

كما يلتقى مع شكسبير فى قوله : « كل ما نلقاه حسنٌ إذا حسنت خاتمته » . فيقول :

« إن ختم الله بغفرانه فكل ما لقيته سهل »

لا أدرى كيف يجرؤ منصف على اتهام مثل هذا الرجل الطاهر فى عقيدته ؟ ألا ما أصدق المثل :

« رمتنى بدائها وانسلت »

ورحم الله ابن الرومى القائل :

ما خمدت نارى ، ولكنها ألفت نفوساً نارها خامده

قد فسدت فى دهرنا أنفس تستبرد السخنة لا البارده

٤ — شيطان الشعر

عبد الغنى : هل تحسن نظم الشعر وأنت صائم يا أستاذ عماد ؟

عماد : كلا فإن سطوة الجوع تكفل هدم كل بيت من الشعر أحاول بناءه . أو لعل شيطان شعرى يسجن فى شهر رمضان مع سائر إخوانه الشياطين ، وإن كنت أنا نفسى مثلت دور شيطان فى هذا الشهر المبارك .

عبد الغنى : وكيف كان ذلك يا أستاذ عماد ؟

عماد : فى ليلة مظلمة من أحد رمضانات الحرب ، التى حرموا فيها النور عدت إلى منزلى متأخراً وكنت مرتدياً بذلة سوداء ، وبينما أنا واقف أمام الباب والشارع مقفر أقبل شخص

موازين البـــلاغة
بين القدامي والمحدثين

للأستاذ كامل السيد شاهين

— ١ —

وبعد جهد جاء الأستاذ العمارى يتمسح فى الآية الكريمة « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » زاعماً أنه نظير قول الآخر فى تشبيه البنفسج بأوائل النار ... الخ . غافلا أو متغافلا عن قدر التشبيه وما وراءه ، مدعياً أن أمره واقف عند حد الدقة والانحناء -- قال — والاصفرار ، ولو كان الأمر كما رجم لكان منزلة التشبيه فى الآية منزلة التشبيه بالمنجل والزورق الفضى ، وقلامة الظفر ، مما يظهر فيه النحول والتقوس .

فالمعنى الذى تمتلىء به النفس عند رؤية القمر آخر الشهر هو الفناء بعد الامتلاء ، وذلك أن القمر نزل منازل مختلفة منذ طلوعه فهو قد زاد نوره قليلا قليلا حتى استكمل ثم تناقص قليلا قليلا حتى كاد يذهب ضياؤه ، مثله كمثل العرجون يكون حياً فى نفسه مُمداً شماريخه بالحياة ثم يدب فيه اليبس والفناء فيرجع ولا غناء فيه ولا حياة . فوجه الشبه بعد التصوير يرجع إلى قلة النفع والاضمحلال واقتراب النهاية ، وإنما يهدى إلى ذلك سلامة الفطرة وحُسن التذوق(١) .

ولا أترك القول فى التشبيه المحَسّ حتى أضع يد الأستاذ على الميزان الذى يعرف به قيم التشبيه جمالا وغثاثة فقد ترك القدماء لنا ميزانا شائلا أملته طبيعتهم الأعجمية المتفلسفة ، وقديماً تحدى بعض الأدباء ابن الرومى ببيت ابن المعتز فى الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنـبر

وقوله فى الآذريون ، وهو زاهر أصفر فى وسطه خمل أسود :

(١) وفى اللسان : أنه — أيضا — نبت أبيض مستدير ، ييبس — إذ ضرب من الكمأة قدر شبر أو دون ذلك ، وهو طيب ما دام غضا .

أقول : لعل التشبيه فى الآية بأحد هذين وليس بعرجون النخلة . وهو أقرب إلى حقيقة الصورة وأظهر فى إبراز المعنى

من بعيد ، ولكنه حين لمحنى تباطأ فى مشيته ثم وقف متردداً ، فأدركت أنه خاف منى . وأنه حسبنى أحد شياطين الظلام ، فدفعنى حب العبث إلى أن أمثل دورى إلى النهاية . فتقدمت نحوه خطوتين فاضطرب وكاد يولى هارباً ، ولكن إلى أين ؟ وقد علم سلفاً أنى أدركه بوثبة شيطانية واحدة . وكأن منزله لسوء حظه مقابلا لمنزلى ، فجمع قواه واندفع يجرى من أمامى فى سرعة الريح وهو يتلو آية الكرسى فى صوت عال محاولا إحراقى بها ، وأنا أشير إليه إشارات تزيده رعباً ، حتى أدرك باب منزله فارتمى فيه على وجهه .

كامل : وماذا كان وقع آية الكرسى فى نفسك يا أستاذ عماد ؟

عماد : برداً وسلاماً على خلاف عادتها مع الشياطين .

عبد الغنى : إن هذه الحادثة لا تخلو من فائدة ، فهى تملل لنا الحوادث التى يؤكد بعض الناس أنهم رأوا فيها الشياطين رأى العين

ولكن قل لى يا عماد هل تعتقد حقاً أن لكل شاعر شيطاناً يوحى إليه الشعر ؟ كما كان يعتقد حسان بن ثابت إذ يقول :

ولى صاحب من بنى الشيعبان   فطوراً أقول وطوراً هوه

عماد : هذا بالطبع أمر لم يقم عليه دليل مادى ، ولكن مما لا شك فيه أن الشاعر عند ما ينظم قصيدته يكون مدفوعاً بقوة غير عادية ، فقد يعود إلى قراءة هذه القصيدة فى وقت آخر فيراها أعلى من مستوى تفكيره ، ويعجب من نفسه كيف تيسر له نظمها على هذه الصورة . والشاعر الذى أعنيه هنا هو الشاعر الصادق الذى لا ينظم إلا متأثراً بفكرته ، فالتأثر هو الذى يوحى إليه ما يحسبه من وحى قوة فوق قوة البشر ، كالشياطين أو الملائكة . أما الشاعر الكاذب المقلد فشعره من وحى القردة لأنها أطبع المخلوقات على التقليد ، ويجب عليه إذا ذكر وحيه أن يقول قال لى قردى لا قال لى شيطانى .

عبد الغنى : هذا حق والشعراء القردانية كثيرون فى كل عصر لسوء الحظ .

(البقية فى العدد القادم)

كامل كيلانى

كأن آذريونها والشمس فيها كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فمذهب القدماء «أن الغرض من التشبيه هو مضاهاة أبيض على أبيض ، وأصفر على أصفر ، ومستدير على مستدير ، ومستطيل على مستطيل ، مما يُرى بالعين ، ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، وقصارى ما يطلب من الشاعر فى التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئين فى شكل واحد ومن لون واحد كأنك فى حاجة إلى ذلك الإثبات الذى لاطائل تحته ، فأما أنه أحسَّ وتخيل وصور إحساسه وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل فى باب البلاغة والشاعرية .

وهذا خطأ بعيد فى فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية إلى القدرة الإلهية التى تحكى المناظر الظاهرة كما تحكيها المصورة الشمسية .

وليس يعنيك أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعاً على المرئيات المتشابهة ليتصل وجدانك بوجدانه ، ولكنما يعنيك منه أن يكون حياً يشعر بالدنيا ، ويزيد حظك من الشعور بها[1]» ويجلى لك ما اضطرب فى نفسك من أحاسيس وخوالج لا تستطيع لها كشفاً ولا بياناً وتلك مزية الشاعر فى كل زمان ، وما كان للقدامى أن يخلطوا فى الحكم لولا أنه التبس عليهم ملكة الشعر بملكة الوصف ، وأن هذه شىء وتلك شىء آخر . « فمن وصف وشبّه ولم يشعر فليس بشاعر ، ومن شبه وأبلغك ما فى نفسه بغير وصف مُشَبَّه[2] » .

ذلك هو ما جر عبد القاهر وغيره إلى سوء الاختيار وطول الإطراء لسخافات هؤلاء الوصافين المصورين ، وإلا فأى جمال وروعة وأى وجدان أثاره الشاعر بقوله فى صفة مِنْسَر البازى :

فى هامة علياء تهدى منسرا كعطفة الجيم بكف أعسرا
يقول من فيها بعقل فكرا لو زادها عيناً إلى فاء ورا
فاتصلت بالجيم صارت جعفرا

وتقرأ عبد القاهر ، فإذا كلام جميل ، وتطريز بديع أملاه تركيب الرجل العقلى الفلسفى .

ويجرى فى هذا الميدان قوله :

(١) ، (٢) ابن الرومى : حياته من شعره . الأستاذ العقاد .

كنا باسط اليد نحو نيلو فرند
كدبابيس عسجد قضبها من زبرجد

وقول الآخر :

لم أر صفاً مثل صف الزُّطِّ تسعين منهم صلبوا فى خطٍّ
من كل عالٍ جذعه بالشطِّ كأنه فى جذعه المشتطِّ
أخو نعاس جدَّ فى التمطى قد خامر النوم ولم يَغُطِّ

كل هذه صور ولكنها ليست شعراً ولا تقوّم فى باب الشعر بقليل ولا كثير ، ولا يحسب لصاحبها وإن رقت صناعته بين الشعراء حساب ، وكل ما لها من حسن مرجعه دقة الريشة وقوة الملاحظة . أما الشعور ، أما الإحساس ، أما الإثارة التى تهز الوجدان ، فما أبعدها عن هذه الصور الميتة الجامدة .

والفرق بين الشعر والوصف ، كالفرق بين الحياة والموت فالذى يشعر إنما يعطيك صورة تدب الحياة فى أعطافها ، والذى يصور يعطيك تمثالا لا حركة فيه ولا حياة .

— ٢ —

يقول الأستاذ الخولى فى قول المتنبى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

كلامهم فى أن الغرض من التشبيه بيان أن وجود المشبه ممكن مرفوض لأن الأديب لا يضع نفسه موضع المناقش بل يفرض نفسه على الناس . وإنما دعاه إلى هذا التمثيل أن الناس ينكرون المزايا ، فقال إن لذلك نظائر . اهـ

أما أن الشعراء يفرضون أنفسهم فذلك ما لا يسع أحداً التشكك فيه ، ودونك فافتح صحيفة من ديوان ، أىَّ ديوان ، فإنك واجدٌ أكثر من مثال :

قال أبو العلاء فى رثاء الشريف الموسوى :

ذهب الذى غدت الذوابل بعده رُعْشَ المتون ، كليلة الأطراف
طار النواعبُ يوم فاد نواعيا فندبنه ، لموافق ومُنافِ
أسفٌ أسفَّ بها وأثقل نهضها بالحزن فهى على التراب هواف

فهذا الذى ادعاه من اختلاج أواسط الرماح وكلال أطرافها ، وهذا الذى ادعاه من أن الغربان قامت نوادب للشريف ، وأنها لحزنها ثقلت حتى كادت تخالط التراب ، وما زعمه بَعدُ من أن الغربان رثى الشريف بقصيدة على رَوِىّ القاف .

هذا كله إدعاء سوّغه أن الشعراء يفرضون أنفسهم على الناس ، فليس فى حسابه أن يقول له القوم كذبت فأقم الدليل على ما تقول . فإذا قال المتنبى أنت أربيت على الأنام وفقتهم ، فما عليه بأس ، وليس لأحد أن يقول له هذا غير ممكن أو ممكن حتى يقال إن قوله : فإن المسك بعض دم الغزال لإثبات هذا الإمكان ولكنه حين يقول ذلك يؤكد دعواه ، ويقرّب المعنى الذى قصد إليه ، وإلا فما هو بالذى يحتاج أن يثبت أن الأمر ممكن ، لأن للشاعر أن يدعى ما شاء وليس لأحد أن يحصى عليه ، فاقبض على هذا الأصل وَعِهِ ، وتبينه ، فلن تجد تناقضاً ولا غرابة ، ومُجمَل الرد فى هذا : إن الشعراء لهم أن يدعوا ما شاء لهم الخيال ، وإن التشبيه هنا للتأكيد والتقوية والإيضاح ولا يفوتنى أن أنبه الأستاذ أنه ذكر أن مَرَدَّ الغرابة فى كلام الأستاذ الخولى أمران ، ثم ذكر أحدهما ولم يذكر الآخر ، فلعل فى هذا المنسِيّ الإلزام والافحام ، والإقناع والإمتاع ! .

— ٣ —

يقول الأستاذ الخولى :

(ا) هم يقولون إن بعض التعابير أوضح من بعض ، فعلم البيان هو الذى يبين درجات الوضوح » .

فيقول الأستاذ العمارى « ليست وظيفة علم البيان البحث فى درجات الوضوح » ثم يقول « هذا العلم له أبحاث كثيرة ، قد يكون البحث فى وضوح الدلالة أقلها » .

فأى تهافت هذا وأى اضطراب : علم البيان لا يبحث فى الوضوح والخفاء ، علم البيان يبحث فى هذا ولكن ليس هذا وحده .

تعال — يا أستاذ — أين الخطأ فى قول أستاذ الجامعة ؟ هل عبارته تفيد أن علم البيان لا يبحث إلا فى أمر الوضوح والخفاء كما تزعم ؟ . إنه يقول « علم البيان هو الذى يبين هذا » نعم هو ذاك فليس ذلك موكولا إلى علم المعانى أو علم البديع ، ولكنه لم يقل إن هذا كل مباحث علم البيان يا دقيق ! !

(ب) ويقول أستاذ الجامعة :

« والجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا ما يكفله علم النحو » فيزعم الأستاذ العمارى أن النحو « يبحث فى سلامة التراكيب » و« أن الذى يبحث فى المفردات إنما هو علم التصريف »

فليفرخ روعك ياصديقى ، فان الكلمة فى الجملة لها ناحيتان : ناحية هيئتها من مادة وترتيب حروف وضبط وهذه للصرف ، وناحية آخرها — إذ هى فى جملة يا فتى ! — وهذه للنحو .

وأستاذ الجامعة حين كفل النحو بذلك إنما أراد النحو والصرف ، قال فى الشافية : واعلم أن التصريف جزء من النحو بلا خلاف بين أهل الصناعة[1] » .

(حـ) ويقول الأستاذ الخولى :

« والجملة قد تعرض عرضاً متنوع الأنماط » فيصل الأستاذ المحقق إلى أنه كان يجب أن يقول : ومعنى الجملة ... إلى آخره .

وذلك لا يخفى على غبى ولا لبيب .

يقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه

فقرر أستاذ الجامعة أن الشاعر قصد وراء التصوير وهو مداخلة السيوف ومزايلتها والتماعها فى العجاج ، معنى نفسياً هو الحيرة والاضطراب فتشبيه هذه الحالة بالليل تتساقط كواكبه مرشد قوى إلى هذا الخوف الذى يتملك المحارب عند الالتحام وهياج المثير وانعقاده على رءوس الفرسان :

ولكن الأستاذ العمارى ينكر هذا ، وما كان لينكره لولا أنه يقتفى أثراً مضلِّلا ، فينقل ما كتب عبد القاهر حرفاً حرفاً ، ويسير وراءه إصبعاً إصبعاً ، ومع هذا فإنى أناشد شاعريته أيهما أليق بالشاعر : أن يكون مصوراً نحاتاً كما يريده القدامى أم يكون حساساً للظلال التى تحيط بالمرئى مُشعراً لك بها فى وضوح ونقاء كما يريد النقاد المحدثون ؟

أحسب أن حكم الشاعرية لا يَعضُدك ولا يسنُدك وحسبى بها حَكَما .

كامل السيد شاهين
المدرس بالمدارس الأميرية

(١) ج ١ ص ٦ طبعة محمود توفيق .

وفاء الشـــــعراء . . .

مسرحية فى فصـــل واحد

مهداة إلى صاحب السعادة عزيز أباظه باشا

بمناسبة زواجه الجديد السعيد

[كان زواج الشاعر الكبير عزيز أباظه باشا ، بعد أن عاهد روح زوجه الأولى على ألا تشغل امرأة بعدها بيته ولا قلبه ، حديث الأندية الأدبية حيناً من الدهر ، ثم انتقل الموضوع من الحديث إلى الكتابة ، فنظم فيه الشعراء ونثر الكتاب واطلع صاحب (الأنات الحائرة) على بعض ما كتب فسمح بنشره واعداً أن يعقب برأيه على جملة ما ينشر]

المقـــــــدمة

الأشخاص :

١ — عبد الرحمن صدق : صاحب ديوان (من وحى المرأة)
٢ — عزيز أباظه باشا
٣ — سعاد
٤ — وداد
٥ — خالصة
٦ — نعمى
(٣ — ٦) رفيقات مخلصات لزوجه زينب الفقيدة رحمها الله
٧ — روح المرحومة زينب المستحضر

عبد الرحمن صدق :

عزيز ، فأين العهــد أوثقت عقده
وأرسلته يدوى فيختال من عُجب ؟
أحقاً ، عزيز ، قد تزوجت بعدها
أأنسيت بيتاً ظل أنشودة الركب ؟
(سألقاك لم يُشغل فراغ تركته ... بيتى، ولم يملأ مكانك فى قلبى)

سعاد :

عزيز ، لفقدها ذو اللب طاشا ... وكان وفاؤك العجب انتعاشا
إذا قاسوا وفاءك قلتُ : حــلا ... وإن ذكروا شبيهك قلت: حاشا
أتبنى بعــدها أنساً بزوج ... وتبنى بعــد ما رحلت فراشا

وداد (تنادى سعاد مستفهمة) :

سعاد ؟

سعاد (تجيب) : قد تزوج

وداد : لا

سعاد : وحقك

وداد : كيف ؟

سعاد : لا أدرى

فأين العهـد ؟ ويح العهد ... زال كنشوة الخمـــر
أكان العهـد مصنوعاً ... بقصد رياضة الشعر ؟ !
وما عهد الرجال لنـا ؟ ... فكلهـــم إلى غـــدر
عهود دونهـــا الأحلام ... فى إغفـــاءة الفجر
ستنفضها رؤى اليقظات ... عن جفن وعن فـــكر

خالصة :

ألا لا عهد إن غابت ... عيون الإلف فى القبر

سعاد :

ألا تعرفن قلب المر ... ء بين أصابع الرب
يقلّبـــه إذا ما شا ... ء جـــلّ مقلّب القلب

عزيز باشا :

أيا ربّ مالى فى قضائك حيلة ... وإنى إلى الرضوان منك لأحوج
وإنك أدرى بالنوايا ، فإن أرم ... سوى شرعك الهادى فإنى أهوج
فهب لى رضاك المبتغى وسكينة ... لقلبى ، فلا يطغى ولا يتحرّج
لئن أنطقتنى سورة الحزن ضلّة ... فعقل الفتى تحت الأسى يتلجلج
وما بى عىّ عن جواب وإنما ... أرى الصمت خيراً لى إذا الحق أبلج
لئن كان شرع الله حتماً ومأثماً ... فالامرئ من حوزة الإثم مخرج
يظنون بى غير الوفاء لزينب ... ألست بأوفى اليوم ، إذ أتزوج
رأيت رسول الله لى خير قدوة ... وسنّته للعقل والفضل منهج

عبد الرحمن صدق :

يا ليت زينب أشرفت ... من كوة الخلد البعيـد
فترى العزيز وعرسـه ... فرحين بالعش السعيد
أنست جوارحـه بها ... وتذوقت معنى الجديد
أنجته من ألم الفراق ... وأطفأت حــرّ القصيد

عزيز باشا :

يا زين قـــد أقسمت إلا ... أن تطلى وتعودى
جودى بوجهك وافصلى ... ما بيننـا بالله جـــودى
هل أنت راضية — أبينى — ... عن وفائى والعهود ؟

شبح الفقيدة زينب :

ويح الرشاد بدار اللهو واللعب ... لقد تحكمت الأهواء بالأدب

كفُّوا السهام فما أصميتم أحداً ... غيرى بها ، يالها من نصرة عجب

أتمسكون برهبانية حرمت ... والجاهلية فى ظل النبى العربى

هل تنكرون إذن وحشية سلفت

يحدو بها الجهل قوماً فى دجى الحقب

قوم إذا مات زوج عندهم دفنوا ... رفيقه معه فى ظلمة الترب

فهل تريدون بيتاً لا عماد له ... وأى أنس ببيت موحش خرب

هل الوفاء سوى الذكر الجميل إلى ... فعل نبيل وقصد طيب الحلب

نعمى :

ما ذا نشاهد ؟ أحلام وأوهام ... أم روح زينب أم وحى وإلهام ؟

سعاد :

بل رُوحها ، جل باريه ومرسله ... واليوم يستحضر الأرواح أقوام

تأتى وتنطق عن علم ، وربّما ... تلوح منها لبعض القوم أجسام

وداد :

أفزينب غضبى وهـــذا ... زوجهـــا لم يرْعَ إلاَّ !

أيسرهـــا ما ساءنا ... من أجلها وتراه فضلا

سعاد :

لا تعجبى فالمرء فى الأ ... خرى يرى ما لا نرى

فلعـــلَّ ما تأبى عوا ... طفنا يكون هو الهدى

خالصة :

يا زين لم ننكر عليه زواجه ... لو لم يكن بالعهد شد رتاجه

أوليس أجدر أن يبرّ بعهده ... من أن يعود بعهده أدراجه

شبح زينب :

ألا إن شرع الله عهد وموثق ... بأعناقكم لو تعلمون مهاَّق

فذاك هو القسطاس . كل أليّة ... تحيد بكم عنه فذلك موبق

ألم تحفظوا ما كان أوصى رسولكم

ولم يك يوما عن هوى منه ينطق

إذا المرء بالمكروه أبرم عهده ... فحنثٌ وتكفيرٌ أحقّ وأوثق

عبد الرحمن صدق :

صدقت ورب البيت . ليس بمسك

على خطل إلا جهول وأحمـــق

وكائن نقضنا فى الحياة عزائماً ... إذا لم يكن فى العزم حزم ومنطق

جميل ثبات فى الفتى عند عزمه ... وأجمل من ذاك الصواب الموفق

سعاد :

بوركت زينب عم فضلك ... فى الحيـــاة وفى الممات

فلأنت أفضل من عرفنا ... من نساء المكرمات

أوتيت من فصل الخطاب ... وفضل خــير المحصَّنات

شبح زينب :

عزيز ، تمتع ما أباح لك الله ... وودّك عندى راسخ لست أنساه

عليك سلام الله فاهنأ وبوركت ... عروسك فى أحلى نعيم وأصفاه

وعند إله العرش مجمع شملنا ... على خير ما يرضيه منا ويرضاه

(يتوارى شبح زينب وينشد عبد الرحمن صدق مخاطبا عزيز باشا) :

دم عزيزاً يا عزيز فلقـــد ... نلت حظاً من ولاء ورشد

سعاد :

فلك التوفيق يسمى والرغد ... فى وفاء ورفاء وولد

وداد :

عشتما فى الأمن من كيد الحسد

خالصة :

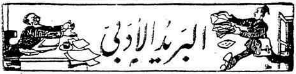
وشرور النافثات فى العقـــد

نعمى :

ما أنار الكون مصباح الأبد

(دمشق) **مصطفى أحمد الزرقا**

أستاذ الحقوق المدنية فى الجامعة السورية



قاري منى ، في إرشاد الأريب :

١ — إلى السيد محمد حسين إسماعيل فى البصرة :

قصة (القارى) — يا أيها الفاضل الأديب — حق ، وهل يمنع من صحتها مانع؟وهذا الشاعر إنما شعر فى الذى كان واشتهر ، والأبيات رواها الخطيب فى (تاريخ بغداد) —ج٢ ص٢٣٧— ولم يشر إلى حكاية ، لم يزد على الرواية ، والشعر يشرح نفسه ، ولم أعثر فى مصنف طالعته على حديث ذاك القارى ، «ومن هوى الصدق فى قولى وعادته » ، صددت عن البناء على الرجم ، فن يعرف من أهل الفضل ما غاب عنا فليشر كنا — غير مأمور — فيما استفاد مشكوراً . وغير ضائر — ونحن فى التكلم على قارى منى — أن أروى مقال ياقوت فى (منى) كيما يجىء فى هذه الخرفشة أو الخربشة شىء مفيد . قال صاحب (معجم البلدان) :

« منى بالكسر والتنوين[1] ... بليدة على فرسخ من مكة ، طولها ميلان ، تعمر أيام الموسم ، وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها . وقل أن يكون فى الإسلام بلد مذكور إلاولأهله بمنى مضرب . وعلى رأس منى من نحو مكة عقبة ترمى عليها الجمرة يوم النحر ، ومنى شعبان بينهما أزقة ، والمسجد فى الشارع الأيمن ، ومسجد الكبش بقرب العقبة ، وبها مصانع وآبار وخانات وحوانيت ، وهى بين جبلين مطلين عليها . وكان أبو الحسن الكرخى يحتج بجواز الجمعة بها لأنهاومكة كمصر واحد . فلما حج أبو بكر الجصّاص ورأى بعد ما بينهما استضعف هذه العلة ، وقال : هذه مصر من أمصار المسلمين تعمر وقتاً ، وتخلو وقتاً ، وخلوها لا يخرجها عن حد الأمصار ، وعلى هذه العلة يعتمد أبو الحسن القزوينى ، قال البشارى : وسألنى يوماً كم يسكنها وسط السنة من الناس ؟ قلت: عشرون إلى ثلاثين رجلا ، وقلما تجد مضرباً إلاوفيه امرأة تحفظه ، فقال : صدق أبو بكر فيما علل . وقد ذكرمنى الشعراء ، قال العرجى:

نلبث حــولا كاملا كله ما نلتقــى إلا على منهج
الحج إن حجت وماذا منى وأهله إن هى لم تحجج[1] ؟!

(١) فى الصحاح : يصرف ، وفى اللسان والتاج : يصرف ولا يصرف

قلت : تلكم (منى) بالأمس ، فكيف اليوم حالها ؟

٢ — إلى السيد عدنان أسعد فى الزيتون :

لاريب فى أن أصل «والأدب من ذى الغيبة» هو «والأوب من ذى الغيبة » والدليل على ما ذهبت إليه أنت — أيها الفاضل الأديب — قريب وإن تباعد منى ؛ فإن الناسخ القديم البارع (سامحه الله) استبدل بالواو دالا ثم جاء الطابع فطبع . وأما بيت امرئ القيس فلا يظاهرك لكن قد يشايعنى ؛ وقول (الملك الضليل) هو الذى ضلل ... وقوى (الغنم) عندى ، فهو لم ير الإياب غنيمة بل رضى من الغنيمة بالإياب ، ولم تكن حاله كما قال فى هذه البائية :

ألم أمض المطى بكل خرق أمق الطول بلماع السراب[2]
وأركب فى اللهام المجر حتى أنال مآكل القحم الرغاب[3]
وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب[4]

(١) فى الأغانى فى أخبار العرجى وفى الكامل : (فى الحج إن حجت و (الحج إن حجت) عند أشكال هذا الشاعر الغزل من أدباء عصرنا — أحسن . والبيتان فى أبيات ، مطلعها :

عوجى علينا ربة الهودج إنك إن لا تفعلى تحرجى

وقد كان العرجى (غفر الله له) خليفة عمر بن أبى ربيعة فى مكة

(٢) فى شرح ديوانه للوزير أبى بكر عاصم بن أيوب : الأمق الطويل ، واليلمع من أسماء السراب ، وفى البيت ما يسأل عنه من طريق العربية وهو إضافة أمق إلى الطول فيتوهم أنه من إضافة الشىء إلى نفسه لأن الأمق هو الطويل . وليس على ما يتوهم ، إنما هو كما تقول بعيد البعد . (قلت) : أراد (يلمع السراب ، فأشبع كما قال عنترة (ينباع من ذفرى غضوب جسرة) فى طويلته والفعل ينبع . وفى شرح ديوان امرئ القيس تأليف الأستاذ حسن السندوبى : (لماع السرابَ) والظاهر أنها رواية وجدها الأستاذ فآثرها .

ومن معانى اليلمع البرق الخلب ، وما لمع من السلاح . والخرق الأرض الواسعة .

(٣) فى شرح الوزير أبي بكر : اللهام الجيش الكثير العدد ، المجر الثقيل ، القحم جمع قحمة وهي الدفعة الكثيرة من المال أو غيره ، الرغاب الواسعة (قلت) : وفى شرح الأستاذ السندوبى : القحم البضع الكثير من الأموال وغيرها .

وفى كتب اللغة التى بين يدى : القحم عظام الأمور التى لا يركبها كل أحد ، الأمور العظام الشاقة واحدها قحمة ، وربما عنى امرؤ القيس ذلك وللأستاذ السندوبى فى إرشادنا إلى مراجعه فى شرح (القحم) الرأى الأعلى

(٤) قال الوزير : أي أكثرت من الطواف فى الآفاق حتى شق على ذلك ، وحتى صار رجوعى إلى أهلى خائبا غنيمة لى ولهم .

لم تسكن حاله كما قال و« لم يركب الأهوال إلا لينال الآمال[1]» فلما أخفق رضى من الغنيمة بالإياب . وكأن الغائب الآئب غير غانم أو رابح أو ناجح أو مستفيد لا تتم غبطته وغبطة الأهل به . والأوبة البحت[2] أو البحتة المجردة التي تسر العائد والمنتظر إنما هي أوبة الجندى من المعركة ، من ميدان الحرب ... « ومن نجا برأسه فقد ربح » — كما قال الشاعر في صفين — أو عودة الحبيبة — كما يقول العارفون — عند المحب وعندها . والسلام .

محمد إسعاف النشاشيبي

جواب :

كتب مجهول باسم مستعار لا وجود لصاحبه ، يعلمنا أصول النقد وقواعده ... ونحن نجاهد هؤلاء الإباحيين بأقلامنا جهاداً ، نرجو عليه ثواب المجاهدين ، ولسنا ننقدهم نقداً . ثم إن النقد نحن أربابه ، ونحن ألفنا فيه لنعلم الناس قواعده ، وندلهم على أصوله ، وما أنت منه يا هذا في قليل ولا كثير ، فانصرف رحمك الله إلى ما تفهم ، ودع النقد لأهله ، ولولا أنك كتبت في « الرسالة » ، لكان جوابك مني جواب الذي نبحني في آخر دقيقة ، وطنّ في أذنى من شاطئ الفرات ، و(سلاماً) !

(دمشق) **علي الطنطاوي**

رأي غريب لأديب :

لبعض القراء تعليقات على ما يقرأون ، ولكن بعض الناس يرون من الغرابة أن تتتبع القارئات المقالات الأدبية بشغف واهتمام، ويجدون ذلك دليلا على فقر صاحبته من الجمال ، لأن الجمال في رأيهم يغنيها عن هذا التتبع . هذا رأى أديب كتبه لأحد محررى مجلة الأسبوع ، وهو رأى كما ترون غريب . فما العلاقة بين الأدب والجمال ؟ ! وهل إذا دققت المرأة فيما تقرأ وتذوقته عُدّ ذلك دليلا على أنها ليست على جانب من الجمال تشغل به ؟ !

غريب جداً هذا الرأى في الوقت الذى نشكو فيه من أمّية القراء ، ونطلب الثقافة للجميع ، وأغرب منه أن يكون من أديب يفهم قيمة الأدب ويعرف مقدار الثقافة !

فمارأى الأدباء في رأى هذا الأديب وفي نعيه على المرأة قراءتها للمجلات الأدبية ؛ ثم ما رأى أديب مجلة الأسبوع فيما يريد أن تقرأه المرأة وما ينبغي لها أن تكون ؟ افتونا أفادكم الله فإنه يخيل إلىّ أننا لا زلنا في ظلمات !

« قارئة بالمنصورة »

من الأمانة في العلم :

نشر الأستاذ المنجد (دور القرآن بدمشق) وترجم لأعلامه سوى بضعة رجال قال إنه لم يعثر على تراجمهم :

١ — الخضر بن كامل بن سالم بن سبيع الدمشقي السروجي المعبر (لا المقير) توفي في شوال سنة ٦٠٨ على ما في (شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد) ج ٥ ص ٣٣

٢ — أمين الدين أبو الغنائم سالم بن الحسن بن هبة الله الشافعي التغلبي الدمشقي . توفي في جمادى الآخرة سنة ٦٣٧ عن ستين سنة ، ودفن بتربته بقاسيون ، وخلف ذرية صالحة أبقت ذكره . ترجم له أيضاً في (شذرات الذهب) . ج ٥ ص ١٨٤

وهو نجل الحافظ أبي المواهب الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى ، المترجم له في (شذرات الذهب) ج ٤ ص ٢٨٥

٣ — أبو مسلم الكاتب محمد بن أحمد بن على البغدادى . توفي بمصر في ذى القعدة سنة ٣٩٩ ، له ترجمة كذلك في (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ج ٣ ص ١٥٦

٤ — محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد العزيز البصروى . ولد ببصرى ، ثم تحول لدمشق ، واشتغل بالعلم حتى بلغ درجة الإفتاء ، توفي بدمشق في أواخر سنة ٨٧١ ، ترجم له السخاوى في كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ج ٧ ص ٢٩٥ ، وهو مذكور في ترجمة الخيضرى (صاحب مدرسة القرآن المشهورة) من (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ج ٩ ص ١١٧

عبد الرحمن محمد عبد الوهاب

---

(١) من مثل أصله : من لم يركب الأهوال لم ينل الآمال .

(٢) في اللسان : وأكل الخبز بحتا بغير أدم ، وفي الأساس : وقدم إليه قفارا بحتا لا أدم معه . وفي اللسان : القفار بالفتح الخبز بلا أدم ، والقفار الطعام بلا أدم ، يقال أكلت اليوم طعاما قفارا إذا كان غير مأدوم



كاتب العـــرائض ...

للأســـتاذ نجاتى صدقى

تذكر جميل المكرماوى بعد مضى خمس وثلاثين سنة من عمره ، أن والدته كانت تقول له فى حداثته : والله يا بنى لأزوجنك متى كبرت من فتاة شامية ، جسمها أبيض مثل الثلج ، وشعرها أشقر مثل الذهب ، وخداها أحمران مثل التفاح ، وكان هو يسمع كلام أمه هذا وعلى ثغره ابتسامة الحداثة البريئة .

وماتت أم جميل ، وتعاقبت السنين ، فكبر جميل ، وتخطى العقد الثالث ، وأناخ الدهر عليه بأثقاله وهمومه ، فكان من البائسين المعدمين ، يضطر إلى ممارسة كتابة العرائض كوسيلة للمعاش ..

ورأس ماله فى هذه المهنة : صندوق خشبى صغير ، وكرسى أصغر ، ومحفظة كرتونية ، وقلم حبر ، ودواة ، والقليل من الأوراق ، ونسخة من قانون العقوبات الجديد الذى نسخ قانون الجزاء العثمانى القديم .

وبعد أن عمل فى هذا الحقل عشر سنوات ، تمكن من ادخار بعض المال بفضل صفقات خاصة عقدها مع السذج من الفلاحين ، وكان يخفى هذا المال فى حزام لا ينفك يطوق خصره ليلا ونهاراً ... وذات يوم راح يخاطب نفسه : أنت وحيد ياجميل ، وعليك أن تجد سبيلا قويماً لتتدبر فيه أمر ما ادخرته من مال ... هيا افتح لنفسك مكتباً يرفع من مكانتك بين الناس ... كلا . كلا ... هيا افتح لنفسك حانوتاً يدر عليك الربح الوفير ... كلا . كلا ... لا هذا ولا ذاك ... عليك أن تتزوج من امرأة غنية تستفيد من ثروتها واذكر ما كانت تقوله له المرحومة أمك : « والله لأزوجنك من فتاة شامية » وسرعان ما سافر إلى دمشق فى طلب العروس .

حل جميل افندى فى فندق « أميّة » فى دمشق ، وهو من أشهر فنادق العاصمة السورية ، وسجل فى دفتره اسمه : « جميل بك المكرماوى محام من القدس » ...

وكان يضع على عينيه نظارة بسلسلة ذهبية ، ويلبس لباساً أنيقاً ، ويثبت فى ياقته دبوساً ثميناً ، ويحلى أصابعه بخواتم ذهبية ، وأشاع فى الفندق بأنه أتى دمشق يطلب زوجة .

وإذ علم سماسرة الزواج فى دمشق أن فى فندق « أمية » وجيهاً فلسطينياً يودالزواج من فتاة مثرية ، هرعوا إليه ، وطرحوا خدماتهم عند قدميه .

وكان بطل قصتنا بحكم عمله ككاتب عرائض خبيراً بضروب الدجل والمخاتلة . فكان يستقبل سماسرة العرائس ، ويكرم وفادتهم ويساومهم ، ويستفهم عن الأسر القديمة الغنية ، ويجمع عنها المعلومات المفصلة إلى أن قرّ رأيه على خطبة بنت (...) باشا ، وهى تنحدر من أسرة تركية عريقة استوطنت دمشق منذ أيام عبد الحميد ، ثم أثرت ، واستعربت .

وبعد مداولات مع أهل العروس ، وهدايا متواصلة حملها جميل بك لابنة الباشا ، وحديث مطول ألقاه على مسامعهم عن أملاكه فى فلسطين فى عين كارم والخليل ... وبياراته فى يافا واللد ... وعن مكتبه الرئيسى فى القدس ، وفروعه المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد المقدسة ... اقتنعت أسرة الباشا بمكانة جميل بك السامية ، وكان له شريك فى القدس يرسل إليه برقيات عن سير « القضايا » فى دور المحاكم ! ...

وهكذا تمّ عقد قران ابنة الباشا على جميل بك المكرماوى فى حفلة اقتصرت فيها الدعوة على الأقارب والأصدقاء ، ثم رحل العروسان إلى لبنان ليقضيا شهر العسل فى فندق (القاصوف) فى ضهور الشوير ... وطالما كان يحدث العريس عروسه وهما فى مصيفهما الجميل هذا ، عن أشهر مرافعاته فى المحاكم محركا يديه ، وملوّحاً بأكمام (الروب ... دى شامبر) ، ومتنقلا فى الغرفة ذهاباً وإياباً ، وكانت عروسه تستمع إليه طربة ، وهى مستلقية على مقعد وثير طويل وقد عقدت يديها تحت رأسها .

وقالت له مرة : حدثتنى كثيراً عن قضاياك ... لكنك لم تحدثنى قط عن حياتنا الزوجية فى بلدك وكيف ستكون ؟

قال : دعى الحديث عن حياتنا المقبلة ، فقد صرنا الآن روحين فى جسم واحد ، أو جسمين تختلج فيهما روح واحدة ! ... وثقى بأننى سأوفر لك جميع أسباب الرفاهية والسعادة فى منزلى الجديد الذى أبنيه فى حى القطمون فى القدس . والآن أرجوك ترك هذا الموضوع الجاف ، وهيا بنا إلى البستان لنأكل ما طاب لنا من الفاكهة .

وبعد انقضاء شهر العسل سافر العروسان إلى القدس ، ونزلا فى بيت حقير شبه قذر يقع فى محلة (وادى الجوز) ... ولما وطئت قدما إبنة الباشا هذا البيت ارتدت إلى الخلف مذعورة وقالت : ما هذا الذى أراه يا ابن عمى ؟ !

قال : لا تضطربى ... إننى متخاصم مع أهلى ، وقد انفصلت عنهم مؤخراً ، واضطررت إلى استئجار هذا البيت المفروش مؤقتاً إلى أن يتم بناء بيتى الجديد فى حى القطمون ... وبيتى الجديد ... عفواً ... بيتنا الجديد ، هو عبارة عن طابقين مبنيين من الحجر الأحمر المرقّ ، وله حديقة غناء مزروعة بأطيب الزهور والرياحين ، وله أربع شرفات فى جوانبه الأربعة ، تطل إحداها على المدينة المقدسة ، وتطل الثانية على هضاب بيت لحم ، وتطل الثالثة على قرية المالحة ، أما الرابعة فتطل على أحياء القدس العصرية ، وسأفرشه بأفخر الأثاث المصنوع من خشب الزيتون .

ومرّ الأسبوع الأول ، ثم تلاه الثانى والثالث ، ثم اكتمل الشهر ... وكل شىء باق على ما هو عليه ضمن الوعود المتواصلة وكانت سيارة تأتى إلى البيت فى كل صباح لتقل جميل بك إلى عمله ثم تعيده مساء ...

ويبدو أن ابنة الباشا قد خامرها بعض الشك فى سلوك زوجها ، فعقدت النية على أن تزوره فى مكتبه وأن تلح عليه بالذهاب معاً لرؤية البيت الذى لم يكتمل بناؤه بعد . وراحت فى أحد الأيام تبحث عنه وعن مكتبه بجوار دور المحاكم ...

وهناك سألت أحد سعاة البريد عن مكتب المحامى جميل بك العكرماوى ، فقال لها إنه لم يسمع بهذا الإسم قط ... ثم سألت غيره فتلقت منه الجواب ذاته ... ثم سألت عنه أحد كتاب العرائض ... فقهقه هذا وظنها عميلة جديدة وقعت فى فخ زميله جميل ... فقال لها : إننى لا أعرف جميل بك العكرماوى ، لكننى أعرف جميل العكرماوى كاتب العرائض ، وهاهوذا يجلس فى تلك الزاوية من الحارة ... وأنصحك بألا تكتبى عنده شيئاً فهو شخص يغرر بالسذج من الناس وإننى لعلى استعداد بأن أتقاضى منك من الأجر نصف ما يتقاضاه هو ... يضاف إلى ذلك أننى آخذ على عاتقى ملاحقة قضيتك فى جميع الدوائر ، هلا أطلعتنى أيتها السيدة على ماهية قضيتك هل هى جزائية ... أو حقوقية ... ؟

وتركته المرأة مسرعة إلى حيث أشار ، فرأت زوجها يضع ورقة على ركبته ، والعرق يتصبب من جبينه ، وهو يكتب رسالة لرجل فقير كسيح ...

فصرخت ... وخرّت على الأرض مغمى عليها .

نجاتى صدقى



دعوة في وقتها :

الرسالة الخالدة . . .

بقلم الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا

الأمين العام لجامعة الدول العربية

عرض وتعليق

للأستاذ عبد المنعم خلاف

— ٢ —

في أصول الدعوة

وهو يقرر في فصول الباب الأول من الكتاب أصول تلك الرسالة الخالدة ، وهي تنحصر في دعامتين اثنتين وهما الإيمان بالله الواحد والإحسان ، فمن آمن بالله الواحد وعمل صالحاً فهو مسلم متبع لرسالة الله ، سواء أكان قبل محمد أم بعده « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ! » والإحسان على معناه الأوسع الأعم الذي يشمل كل نشاط ينفع الناس ويعمر الدنيا .

وهذه الحقيقة وإن كانت معروفة للخاصة من الناس إلا أنها لدى العامة مجهولة ، ولذلك تأتي الآن في وقتها ، وقت الدعوة إلى الإنسانية الجامعة والعالمية الشاملة التي لا بد فيها من فهم الدين على حقيقته فهماً يجمع الناس ولا يفرقهم ، ويعقد بينهم سباقاً للخير كما يقول الله لأهل الأديان الثلاثة : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، فاستبقوا الخيرات » لا سباقاً إلى الشر والحروب كما يقول الشيطان ...

وتقرر هذه الدعوة الآن بلسان زعيم من كبار زعماء المسلمين وأمين جامعة الدول العربية أمر له مابعده ! وشأن جدير أن يخطو بالجامعة العربية والجامعة الإنسانية خطوات حثيثة .

والحق أن القرآن أتى في هذا الأمر بالعجب العجاب الذي لم تأت به فلسفة العصر من التسامح وفهم روح الدين .

والحق كذلك أن الأرض تحتاج مسيس الحاجة إلى وحدة اتجاه أهل الأديان الثلاثة السماوية وأهل الدينين الكبيرين العامين منها المسيحية والإسلام بوجه خاص ليقاوموا عوامل الجحود والطغيان والتنكيل بميراث الإنسان .

والحق كذلك أنها دعوة مدخرة لسكان الشرق الأدنى من المسلمين والمسيحيين واليهود — إن تركوا مزاعم الصهيونية البغيضة — وقد نصر الله روح حضارتهم على روح الوثنيات دائماً ، وآخر معركة بين الروحين هي معركة اليابان التي ما كان أحد يدري ما ذا كان يحدث لأتباع الأديان الثلاثة من انقلاب في مثلهم العليا الدينية الواحدة لو انتصرت اليابان وأتت بموجات وثنيات الشرق الأقصى طاغية بها على بلاد المسيحيين والمسلمين واليهود ؟ !

وقد كنت كمسلم أخشى هذا وأتمنى أن أدعو المسلمين وقت معركة اليابان إلى الفطنة لهذا المعنى وأخذ نصيبهم من المعركة ، لولا أن قعد بي ملاحظة أن في هذه الدعوة ممالأة للانجليز غاصبي بلدي وبلاد المستضعفين من قومي وغيرهم ، مما يدعو الأحرار أن يتمنوا هزيمة أعداء الحرية ولو على يد الشيطان كما قال تشرشل حين حالف روسيا العدو الأول للامبراطورية البريطانية ضد الألمان ...

وعزام باشا يثبت دائماً هذا المعنى الجامع للمسلمين وأهل الكتاب خصوصاً النصارى ، ويدعو المسلمين والمسيحيين في الشرق بوجه خاص لينهضوا برسالة الإنسانية في العصر الحديث ، وينادوا العالم إلى ما عندهم من الأخوة السامية على الأجناس والألوان والنعرات . وهو يقرر دائماً أن التسامح هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الوحدة العالمية ، ولن يكون التسامح إلا بتوطيد الدعامة الثانية للدين وهي الإحسان المبني على أصلين عظيمين : هما الرحمة والإخاء

فى الاصلاح الاجتماعى

يرى المؤلف فى فصول هـذا الباب الأربعة أن الإصلاح الاجتماعى فى الإسلام على أربعة فصول : التطهير الخلقى للفرد ، والتكافل بين الجماعة ، والبر الذى يطارد الفقر والترف والربا ، والعدالة والحرية اللتين هما ميزان الخليقة والشريعة . فأما التطهير الخلقى للفرد فهو نتيجة للعقيدة الخالصة بالله المتصف بجميع صفات الكمال والجمال والجلال ، إذ العبد مأمور أن يتخلق بأخلاق الله ومطبوع على أن يقلد صفات سيده الذى لا شريك له ولا سلطان مع سلطانه ، فلا يتوجه قلب من يعرفه إلى غيره ولا يخشاه إذ تتساوى الخلائق فى ملكوته وفى العبودية له . فالمؤمن شجاع صادق صريح جرئ فى الحق مناضل للباطل والفساد ، كريم ، وفىّ ودود إلى آخر صفات المروءة والكمال .

وأما التكافل فهو مبنى على مسئولية الفرد عن الجماعة ومسئولية الجماعة عن الفرد واعتبار المسئوليتين هما أولى الوسائل فى الاصلاح الاجتماعى إذ بهما ينشأ « الرأى العام » الحارس لكيان الأمة البصير بمصالحها ، الدافع للآفات عنها المعالج بالتشريع لما ينشأ من أدوائها .

وأما البر فهو الإحسان والمواساة للفقراء ، والمتخلفين فى المجتمع . والفقر هو مشكلة العصر ومادة حديث الدعوات السياسية والاجتماعية والبر نتيجة للتكافل الجماعى . ولم يجعل الدين الفقر سبباً لازدراء صاحبه بل كانت أول مواساة الفقير هى شعوره بالمساواة مع غيره من الأغنياء . والفقير لعجز أو مرض جعل الدين مواساته وكفاية حاجاته حقاً له على المجتمع « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » والفقر لفقد الوسيلة إلى العمل جعل الدين علاجه واجباً على الدولة بإيجاد وسائل العمل والتكسب . والعمل هو الأصل وقد حض عليه الدين كثيراً .

وقد طارد الدين الترف فى أعلى المجتمع والبؤس فى أسفله ليجعل مستوى الحياة متناسقاً ، وكذلك حارب الاكتناز والربا والإسراف فى الشهوات ، واستعلاء طبقة على طبقة ؛ إذ المؤمن الصادق لا يضمر فى نفسه أنه خير من خادمه مع سيطرته عليه . وقد أعطى الإسلام سلطات واسعة لولى الأمر ليحقق البر والمساواة بين الناس ، ودعا إلى البر بجميع الوسائل بالترغيب والترهيب ، وجعل حق الفقير حق الله فهو مصون وليس لأحد أن يمن به . والبر فى الدين بر عام شامل لفقراء المسلمين وغيرهم لا فرق بين فقراء دين وفقراء آخر .

والحق أن فى هذا الفصل بياناً واضحاً لطرق مكافحة الفقر بتثبيت قواعد البر وصوره فى الضمير قبل ظواهر القوانين . وأما العدالة والحرية فهما مبدآن فى السياسة وفى الدين الذى هو محطم القيـود والأغلال الوهمية عن النفس البشرية ؛ ولن يقوم مجتمع صالح إن لم يؤسس على ميزانهما الذى لا يحابى الأحباب ولا يظلم الذين وقع عليهم البغض والشنآن .

والحرية فى الإسلام من أقدس الحقوق فى السياسة والفكر والدين والحياة المدنية ، وهى مكفولة للصابئ والمجوسى واليهودى والنصرانى والمسلم يقول ويكتب مايشاء فى حدود المصلحة العامة فلينظر من شاء كما يشاء فى الكون ليستنبط لنفسه ما يراه حقيقة تطمئن نفسه إليها ، ولا ملام عليه ولا جناح .

فى العلاقات الدوليـــة

فى هذا الباب فصول ستة يتجلى بها الطابع الأصيل الذى غلب على حياة المؤلف كرجل سياسة من الطراز الأول ، وقد أتى فى فصوله بأبحاث بكر عن الدولة الإسلاميـة الأولى وتاريخ علاقاتها بالمناهضين للاسلام ، وحلل أولى معاهدة دولية بين المسلمين واليهود والوثنيين ، وخرج منها بمبادئ تجعلها نموذجاً قديماً لعصبة الأمم الحديثـة . ثم بيّن الدواعى والأسباب التى جعلت الحرب الدفاعية أمراً لا مناص منه بين الدولة الإسلامية الناشئة والمناهضين لها ، وبين تقييد الحرب فى الإسلام بالأغراض السامية ، سلبية كانت كدفع الظلم والاعتداء عن النفس وعن المظلوم أيا كان ، أم إيجابية كالخير العام أوالصالح العام ، ولايجوز أن تكون أغراضها هى التوسع فى الملك أو الاستعمار أو تعجيز الآخرين لإضعافهم عن المنافســة فى ميادين العيش ، ولا العلو والاستكبار وحب البطش .

وبيّن أن الإسلام دين عملى يواجه الحقائق حين أباح الحرب لدفع العادية أونصرة المظلوم ، وماورد فى القرآن من آيات الشدة

والغلظة على الأعداء وليس معناها الدعوة إلى الابتداء بالاعتداء وإنما هى تحميس للنفوس إذا وقعت الحرب فعلا ولم يكن مناص منها ؛ لأن الضعف والذل ظلم للنفس لا يرضاه الله بل يعاقب عليه .

والحرب الهجومية لا يبيحها الإسلام مطلقاً ؛ والحرب المشروعة ضرورة تقدر بقدرها ؛ فإن جنح الخصم للسلم فليجنح لها المسلمون متوكلين على الله ، فالإسلام على استعداد دائم لعقد اتفاقات مع من شاء لصيانة السلم ، ولا تحالف فى الإثم والعدوان .

والمسيحية وإن حرمت الحرب تحريماً قاطعاً إلا أن الحياة العملية التى واجهت المسيحيين جعلتهم يختلفون فى تحريمها . فالكنيسة الشرقية أحلتها بإسراف حين خلطت بين شخصية الرئاسة الدينية وشخصية الدولة الزمنية فى شخص واحد فوضت إليه أن يعلنها كما يشاء ، بينما حرمتها الكنيسة الغربية فى القرون الأولى للمسيحية تحريماً باتاً حتى ولو كانت دفاعاً عن النفس .

وقد لجأ المسيحيون أخيراً إلى شبيه بالنظرية الإسلامية التى جمعت بين مايقتضيه إقامة صرح العدالة العالمية وما تقتضيه الرحمة والأخوة البشرية والانصاف وكبح أهواء النفس الشريرة وحقن الدماء وإقامة السلام .

وقد وضع الإسلام آداباً عامة للحرب وآداباً خاصة حين فشل فى القضاء على الحرب كما فشل فى القضاء على الرق ؛ لأن تنظيم الشر الذى لا بد منه خير . وقد أتى فى هذه الآداب بما فى طاقة البشر من السمو ، وروح الفروسية والنبــل ورحمة الأعداء وحماية حقوق المستأمن ومسالمة غير المحاربين ومجاملة رسل العدو والإحسان للأسرى ، والترفع عن التخريب والإحراق وإيذاء الضعفاء وغير المحاربين ، وقد امتلأ تاريخه بهذه الخلال التى تجعل الحرب كأنها ميدان لظهور مكارم الأخلاق ظهوراً قد يغطى على ما فيها من سفك الدماء ...

وقد أتى المؤلف فى هذا الباب بنظرة جديدة فى أحكام الأسر والاسترقاق تجعل استرقاق الأسرى لا سند له من القرآن والسنة الصحيحة ، وقد أنحى بالحجج العقلية والنقلية على ما يقال من جواز القتل لعلة الكفر أو الشرك وحدها ، وبيّن أن هذا ينافى روح الإسلام الذى يقرر أن لا إكراه فى الدين ، وقد أمده التاريخ بنصوص وحوادث لا سبيل إلى الشك فيها .

وقد بيّن أن السلم الدائمة هى أساس العلاقات الدولية فى نظر الإسلام ، وأن الحرب طارئة عليها . وقد دفع التهم والأوهام التى تزعم أن دعوة الإسلام قامت على السيف وتقوم به وأن الإسلام بصفته ديناً ودولة فى حالة نزاع دائم مع من يخالفونه ، وبيّن أن روح الإسلام السلمية واحدة فى مكة أيام الضعف وفى المدينة فى عهد القوة ، وقد استشهد بالأجانب وبالتاريخ وقد بيّن أطراف العهود والمواثيق التى يمكن أن تقوم بين دولة إسلامية وغيرها سواء أكان ذلك الغير جماعة إسلامية أخرى أم جماعة معاهدة أم جماعة ليس بينها وبين المسلمين عهد .

ومن الأمور الهامة التى رأى فيها رأياً جديداً مسألة التخيير بين الإسلام والجزية والسيف ؛ فقد بيّن أن هذه الحالات الثلاث التى كانت تعرض على الأعداء ليست آتية فى عمل المسلمين على سبيل الحصر فقد وجدت اتفاقات وحالات سلم بين المسلمين وجيرانهم ودول أخرى بغير أن يشترط فيها حالة من الحالات الثلاث . وحق إمام المسلمين وجماعتهم فى عقد ما يرونه صالحاً متفق عليه . فصلح الحديبية مثلا لم يشترط شيئاً منها بل كان فيه شرط اعتبر إعطاء للدنية من المسلمين أمام المشركين المحاربين . وإنما كان الأمر المطرد الذى يلحظ فى جميع اتفاقات الرسول صلى الله عليه وسلم هو القصد إلى نشر دعوته والوصول بها إلى الظهور بدون أن تعترضها قوة ، وكثيراً ما كان الوصول إلى حالة سلم مستقرة هو الهدف الأسمى لتمكين الدعوة من الحرية اللازمة لظهورها . فلا يشترط شىء آخر ، بل يكون شرط الجزية أو الإسلام مؤخراً ومانعاً للتفاهم فيؤجل انتشار الدعوة التى سلاحها الوحيد أنها حق لا يقاومه جدل . فى هذه الحالة يصبح شرط الإسلام أو الجزية مضراً ويكون فاسداً ، وعلى ذلك ليس حقاً أن إمام المسلمين أو جماعتهم ملزمون بإقامة السلم على شرطى الإسلام أو الجزية ، وإلا كانوا فى حالة حرب دائمة مع أكثر البشر وامتنع ظهور الإسلام كدعوة عالمية .

(البقية فى العدد القادم)

عبد المنعم خلاف